كل هذا
الصوت الجميل

كل هذا
الصوت الجميل

مختارات قصصية
لكاتبات عربيات

جمعتها وقدمت
لها
د. لطيفة الزيات

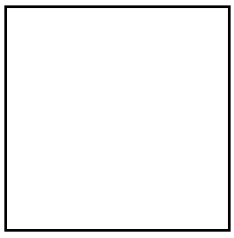

قصص المجموعة

(أ)

ليلي والذئب - أميلى نصر الله
رأيت النخل – رضوي عاشور
الانفجار – ناديا خوست
السلطانة – اعتدال عثمان

(ب)

صريف أقلام الملائكة – حنان الشيخ
كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها – سلوي بكر
حذاء بدون كعب – لطيفة باقا
النشيد – سلمي مطر سيف
القيلولة – سلوي نعيمى

(ج)

ألوان – ليانة بدر
الطائر الأزرق – سهام بيومى
شرف البشارة – ربيعة ريحان
أنا وهى – هادية سعيد
علمتنى يا أبَت أن أحضن الحياة – عروسية النالوتى
الشَيخوخة – لطيفة الزيات

المقدمة

هذه مختارات من القصة القصيرة لكاتبات عربيات شئت أن أقدمها الي القراء. وتضم هذه المجموعة قصصا لكاتبات عربيات من مصر والمغرب وتونس وسورية ولبنان وفلسطين والإمارات من أجيال مختلفة بما فيها جيل الشابات. وقد تمتعت كقارئة بكل قصة من هذه القصص متعة كبيرة وأردت أن أشرك القارئ والقارئة فى متعتى، وقوّمت كناقدة كل قصة من هذه القصص تقويما إيجابيا. وتمنيت أن يخرج القارئ والقارئة بحكم مماثل.

وبينما تشكل المجموعة القصصية هنا وجها من وجوه إنجاز الكاتبة العربية فى مجال القصة القصيرة، تبقي قاصرة عن الإلمام بوجوه هذا الإنجاز كافة، ويبقي الاختيار عشوائيا ما لم نقم بمسح شامل للقصة القصيرة عند مختلف الكاتبات العربيات وتقويمها تقويما نقديا صحيحا. وقد أشعرتنى القصص المختارة هنا بأهمية هذا المسح والتقويم الشامل. وربما كان لهذه المجموعة من القصص فضل التنبيه إلي الأهمية القصوي لهذا المسح والتقويم، فالقصص التى أدرجتها هنا تدعو إلي اهتمام أكبر بما تنجزه الكاتبة العربية قصصيا وروائيا، وإلي الاحتفاء بهذا الإنجاز كجزء لا يتجزأ من سياق الإبداع القصصى والروائى العربى.

$ $ $

استعرت عنوان هذا الكتاب من قصة «كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها» للكاتبة *سلوي بكر* وفيها يتنكر الناس لصوت المرأة الجميل. وأنا هنا أعمم ما خصصته *سلوي*، إذ مازالت حركة

النقد الأدبى تتنكر لإنجاز الكاتبة العربية وتضع إبداعها علي هامش الإبداع العربى وخارجا عن سياقه، ومازال تعبير الأدب النسائى، أى الأدب الذى تكتبه المرأة، تعبيرا ينطوى علي محاولة لتحقير الأدب الذى تكتبه المرأة. وهو تعبير يشير فى النقد الأدبى لكل ما هو جزئى لا كلى، ولكل ما هو محدود وذاتى. وقيل فيما قيل من أراء نقدية إن الكاتبة العربية عادة ما تتحلق حول الأنا مفصولة عن إطارها المجتمعى، وأنها تنطلق من منطلقات نرجسية تسعي إلي تكريس صورة الذات وتمجيد هذه الصورة. وقيل إن المرأة تكتفى بالسطح دون الأعماق ولذلك لا تنفذ كتابتها إلي جوهر الأشياء، ولا تكتسب تجربتها القصصية أبعاد التجربة الكلية التى يجد فيها كل بعضا من ذاته، وأن الموضوعى لا يتجاور فى كتابتها مع الذاتى، ولا العام مع الخاص، ولا النمطى مع الفردى.

وأرجو أن يتضح من تحليلى لكل قصة من القصص المختارة علي حدة فساد هذه الدعاوَي فى حق الكاتبة العربية، وأن تتضح من خلال هذا التحليل رحابة الآفاق التى تطرقها الكاتبة العربية وتعددها محتضنة للهمّ الخاص والعام معا، ومدي الأعماق ومستويات المعني لحقيقة مركبة أشد التركيب التى تتوصل إليها وهى تضرب من الظاهر إلي الباطن، ومن السطح إلي الأعماق فى تناولها لجزئيات الواقع الاجتماعى وكلياته. ومجموعة القصص المختارة تدل فيما تدل علي أن الكاتبة العربية تمارس التجديد والتجريب بنجاح، وتنتقل إلي مستوي الفن بمدي ما تقول قصتها أكثر مما تقوله مجموعة جزئياتها، وبمدي ما تصدر تعليقا بليغا علي طبيعة الواقع الذى تعرض له دون الوقوع فى المباشرة أو التسطيح أو الأحادية.

ولا أزعم إمكانية تعميم ما يصدق علي القصص المختارة علي كتابة المرأة العربية علي إطلاقها، ولا أزعم بمقتضي ما أتوصل إليه من

نتائج فى تحليل هذه القصص القول الفصل فى موضوع كتابة المرأة فى كليته، فهو كما سبق أن قلت يحتاج إلي مسح عام وتقويم شامل.

$ $ $

تحتم اختيار تبويب ما لإدراج القصص المختارة فى هذا الكتاب. وكان أن استبعدت التبويب علي أساس إقليمى عربى، لأن الهمّ المشترك الذى يسود هذه القصص العربية يغلب علي كل اختلاف قطرى أولا، ولأن الكثير من الأقطار العربية غير ممثلة ثانيا. واستبعد التبويب علي أساس التتابع التاريخى لأجيال الكاتبات أيضا، إذ تأتي إبراز الاستمرارية بين الأجيال من الكاتبات التى تجعل القصص تندفع فى هذا النبع المتدفق الذى تتضارب أمواجه وتتشابه.

وقد اخترت أن يأتى التبويب وفقا للتيمة الرئيسية التى تعرض لها كل قصة من القصص المختارة، برغم إدراكى لصعوبة تحديد هذه التيمة تحديدا جازما. واندرجت المجموعة الأولي (أ) فى باب رصد المتغيرات الاجتماعية التى طرأت علي مجتمعاتنا العربية فى العقدين الأخيرين. وشملت هذه المجموعة بالترتيب التتابعى قصة الكاتبة اللبنانية *أميلى نصر الله* : ليلي والذئب، وقصة الكاتبة المصرية *رضوي عاشور*: رأيت النخل، وقصة الكاتبة السورية *ناديا خوست* : الانفجار، وقصة الكاتبة المصرية *اعتدال عثمان* : السلطانة. وترصد كل قصة من هذه القصص متغيرا اجتماعيا فى الواقع العربى الذى يتشابه فى سماته العامة فى كثير، من زاوية مختلفة تضيق أحيانا وتتسع. ودون أدني مباشرة تصدر كل قصة من هذه القصص تعليقا بليغا علي طبيعة المتغير الاجتماعى.

أما المجموعة الثانية من هذه القصص فتتدرج فى المجموعة (ب) من حيث تُعْني كل منها فيما تعني بوضعية المرأة فى ظل مجتمعها

وتتخذ دائرة القيم والسلوكيات إطارا رئيسيا لها. ولهذا الباب انتمت قصة الكاتبة اللبنانية *حنان الشيخ*: صريف أقلام الملائكة، وقصة الكاتبة المصرية *سلوي بكر*: كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها، وقصة الكاتبة المغربية *لطيفة باقا* : حذاء بدون كعب، وقصة: النشيد لكاتبة من الإمارات هى *سلمي مطر سيف*، وقصة الكاتبة السورية *سلوي نعيمى*: القيلولة.

وتتناول كل هذه القصص، فيما تتناول وضعية المرأة فى ظل واقعها الاجتماعى من زاوية مختلفة، وتتجاوز كل منها وضعية المرأة إلي وضعية الرجل فى واقع اجتماعى ينزل القهر بالمرأة والرجل علي السواء.

وتتناول المجموعة الثالثة والأخيرة (ج) بالتحليل صورا من الحب فى إطاره المجتمعى. وتتعدد صور الحب من حب الوطن إلي الحب الخصب القادر علي الخلق بين الرجل والمرأة إلي الحب الرومانسى إلي صور من الحب المختل والمريض. وتشمل هذه المجموعة قصة الكاتبة الفلسطينية *ليانة بدر*: ألوان، والمصرية *سهام بيومى*: الطائر الأزرق، والمغربية *ربيعة ريحان*: شرف البشارة، واللبنانية *هادية سعيد*: أنا وهى، والتونسية *عروسية النالوتى*: علمتنى يا أبَتِ أن أحضن الحياة، والمصرية *لطيفة الزيات*: الشيخوخة.

ويقوم هذا التبويب كما يقوم التبويب عادة علي تبسيط مخل، فالأبواب تتداخل فعليا الواحد والآخر، وكل القصص تعمل علي مستوي القيم والسلوكيات، وكلها بما فيها القصص التى تتناول الحب موضوعا تصدر تعليقا بليغا علي طبيعة الواقع الاجتماعى ووضعية المرأة فى ظله، إلي جانب حقيقة أن كل القصص بلا استثناء تعرض لألوان متعددة من الحب. وعلي كل فالمسألة مسألة توكيد، والتبويب ينطوى كما سبق وقلت علي التبسيط.

وفيما يلى أخلص من التعميم إلي التخصيص وأفرد لكل قصة تحليلا وافيا يبرز خصوصيتها وتفردها عن بقية قصص المجموعة.

(أ)

فى قصة «ليلي والذئب» تعيد الكاتبة اللبنانية *أميلى نصر الله* صياغة قصة الأطفال المعروفة «ذات الرداء الأحمر» معمقة لمعانيها الرمزية، ومفسرة لها تفسيرا جديدا لتعلق علي الاتساع المتزايد للهوة التى تفصل بين الأجيال فى الواقع المعاصر. والهوة بين الأجيال موجودة فعلا فى قصة «ذات الرداء الأحمر»، غير انها تتسع إلي لا مدي فى قصة «ليلي والذئب». وليلي التى تقلع لأول مرة فى رحلة إلي بيت جدتها، تكنى هنا عن رحلة الحياة، لا تحيد عن هدف الرحلة لحظيا كما تفعل ذات الرداء الأحمر، بل تسقط هدف الرحلة (بيت جدتها) تماما مستغنية عن المستقبل بالحاضر ومكتفية باللحظة الآنية وإن اكتنفها الخطر.

والكاتبة تعمق من المعانى الرمزية وتضيف إليها وهى تعيد صياغة قصة «ذات الرداء الأحمر» صياغة شاعرية تغنيها الصور الجمالية وأغانى رحلة الحياة، والذئب يكنى عن كل شرور الدنيا وخاصة تلك التى تواجه الفتاة فى معترك الحياة، والطريق إلي بيت الجدة هو الطريق المخطط للحياة، والوصول إلي بيت الجدة يشكل الهدف المخطط للرحلة ومن ثم إمكانية تجاوز شرور الحياة بأقل خسارة ممكنة. وتبقي قصة الأطفال هنا قصة حاضرة غائبة مصدرا للمفارقة واختلاف الرؤية التى تقدمها قصة «ليلي والذئب». وتصل ذات الرداء الأحمر إلي بيت جدتها أخيرا، ولا تصل ليلي التى تستوعبها اللحظة ويضيع منها الهدف.

والجيل الجديد فى قصة ليلي والذئب جيل يعيش لحظته

الراهنة دون أن يخطط لمستقبله، وجيل يضيع منه الهدف فلا يسعي خلفه فى مثابرة. ولكن أميلى نصر الله تمتنع عن إصدار الأحكام الأخلاقية، فمن يدرى أيّا من الجيلين علي صواب؟ نصائح الأم المتكررة تبدو أحيانا خانقة حائلة دون ممارسة الحياة، ولا بد للفرد من أن يعيش تجربته هو وأن يتعلم من هذه التجربة، ويتأتي علي من يمارس الحياة أن يحتضن فيما يحتضن قدرا من الخطأ ومن الخطر.

$ $ $

ترصد الكاتبة المصرية *رضوي عاشور* متغيرا اجتماعيا آخر ربما كان أوسع دلالة علي المتغيرات التى مست الواقع الاجتماعى فى السنين الأخيرة. وتبدأ رضوي عاشور قصتها «رأيت النخل»، هكذا: طال الشتاء فلم أعد قادرة علي الانتظار. وستحمل هذه الجملة القصيرة البسيطة الموجهة أكثر من دلالة وأبعاد القصة تتكامل، ونحن نتساءل شتاء من الذى طال أهو شتائى أم شتاؤك أم شتاؤنا معا، وعلي ماذا انقطعت قدرتنا علي الانتظار؟ علي انحسار الجدب الذى أصبح يطبق علينا وعلي مجتمعاتنا؟ علي سريان الزرع فى الأرض الخراب؟ علي وصل ما انقطع وعودة أواصر الانتماء للأرض والآخرين؟ علي انعدام العطاء والقدرة علي العطاء؟

وقصة «رأيت النخل» هى ولا شك قصة مرحلة، وأعنى بقصة مرحلة تلك القصة التى تطلع علينا بين الحين والحين، لتمسك بشكل بليغ وفصيح بأبعاد مرحلتنا، ولتضعنا وجها لوجه أمام هذه الأبعاد ... الجدب المعنوى والمادى والسلوكيات التى تتلاءم مع هذا الجدب المعنوى والمادى، ضياع الانتماء إلي الأرض وإلي الآخر، والنحن تستحيل إلي أنا وبعدى الطوفان، انعدام العطاء وندرته وخروجه علي العادى والمألوف والتصدى له كما التصدى للجنون، وانعدام الإفضاء والوصل بين الناس. وقصة «رأيت النخل» علي بساطتها المتناهية تمسك باستعارة

مستطيلة تمتد ما امتدت القصة، تجسد المتغيرات فى الواقع الاجتماعى. ولأن القصة قصة مرحلة فهى تصدر دون أدني مباشرة تعليقا بليغا علي طبيعة هذه المرحلة، تعليقا بوشى الألم وبوشى الأمل؛ الشتاء يطبق والبراعم تغيب ولكن صبّارة فوزية ما زالت رغم الجفاف ورغم الاهمال ناهضة تصل ما انقطع بين الشتاء والربيع، وتَعِد رغم ما انقطع بغد أفضل من اليوم.

صبّارة فوزية ليست ككل صبارة، صبارة فوزية صبارة الانتماء الذى ينبع من ماضٍ تليد ويجب أن يصب فى حاضر تليد أيضا. صبارة فوزية صبارة العمة ومن قبل العمة الجدة، تصمد رغم المتغيرات، تعطى والجدب يخيم علي وجه الأرض. وفى بيت فوزية فى الصعيد حيث نشأت كان الزرع والعطاء، علي سطحه نعناعة وفى قاعه صبارة وببابه نخلة. وفوزية حين تزرع كل ما تصل إليه يدها فى كل مكان تصل إليه، تخرج علي السائد المألوف والعادى وتواصل تقليدا من العطاء لا ينبغى أن ينقطع. ولأن الجدب هو القاعدة، وهو السائد والمألوف فى أيامنا هذه يتهم الناس فوزية بالجنون.

وتنتهى القصة وفوزية لم تعد بعد وحيدة، إذ تسلم تقليد العطاء والازدهار لجارة تريد بدورها أن تزرع، وما إنْ يسرى تقليد العطاء والازدهار من امرأة إلي أخري، حتي نجرؤ نحن القراء رغم ضيق الدائرة علي التطلع إلي مستقبل ينحسر عنه الجدب. وفوزية تهدى الجارة عود نعنان لتزرعه، وبعد العود ما هو أهم من العود «أهديتها عود نعناع كنت قد زرعته ثم جلسنا وتحدثنا». والفقرة الأخيرة تثير الشجن، فما أندر أن نجلس الآن ونتحدث، ما أندر أن نفضى ونتواصل فى هذا الزمن المجدب الذى يكاد يحيلنا إلي أفواه تجتر لقمة الخبز.

وتحتل صورة النخيل أهمية كبري فى هذه القصة، إذ تحملها

الكاتبة بأكثر من مستوي للمعني، فالنخيل هو العطاء المتجدد وهو فى ذات الوقت الأهل الذين مضوا بعطائهم المتجدد. وهذه الوحدة ما بين الانسان والطبيعة هى وحدها الكفيلة بإحلال الازدهار مكان الجدب، والتواصل والإفضاء مكان الصمت، وهى الكفيلة بالتجدد الخصب لحياة تفتقر إلي الخصب. وفى بناء هذا المستوي من مستويات المعني، استندت الكاتبة إلي حديث منسوب للنبى محمد (ص) يقول «أكرموا عماتكم النخل» وطوّرته إلي أقصي ما يمكن تطويره بحيث أصبح الانسان هو العطاء أولا وأخيرا.

$ $ $

تتتبع الكاتبة السورية *ناديا خوست* فى قصة «الانفجار» اندثار جيل وظهور جيل بديل. والانتقال من جيل الي جيل سنة الزمن وسنة الحياة، غير ان هذا الانتقال يكتسب فى هذه القصة مغزي جديدا نظرا للمتغيرات العميقة فى القيم والسلوكيات التى شهدتها أمتنا العربية من الستينات وحتي اليوم، هذه المتغيرات التى تنطوى علي انحدار رهيب ينبئ عن خلل جذرى. فالجيل القديم لا يسلم إلي الجيل الجديد مجموعة قيمه وسلوكياته ليطورها إلي الأفضل كما يجب أن يحدث لضمان التقدم والاستمرارية فى الهوية. ومحل الاستمرارية تقع القطيعة، وكل من الجيلين يحمل نظما سلوكية وأخلاقية تتضارب مع نظم الجيل الآخر، ونظم الجيل الجديد تنتشر وتقوي، تُصارع لتلغى قيم الجيل القديم وكأن لم تكن، وتنجح فى هذا، ومن هنا يأتى الانفجار الذى يرمز إلي مصرع قيم الجيل القديم وإلي محوها من الذاكرة، واستبعادها عن الحس وكأن لم تكن أبدا وإلي انتصار البديل الذى ينطوى علي الانحدار انتصارا نهائيا.

وناديا خوست تخصص ولا تعمم، وتستطيع من خلال التخصيص الدقيق أن تستثير الواقع الاجتماعى لا فى سورية فحسب

بل فى الكثير من أقطار الأمة العربية، ونحن نتلقي الحدث من خلال منظور راوية، مدرسة جامعية تنتمى كتلميذة فى مدرسة إلي جيل الستينات، حين كانت كلمات قاسم أمين ما تزال تعنى الكثير وكلمات أبى القاسم الشابى «اذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر» حيث قيم العمل والانتماء والمثابرة، والتحرر الفردى والوطنى، وحرية المرأة، واستكشاف كل ما هو جديد، واحترام فردية الانسان وخصوصيته واختلافه فى الرأى، وحيث الارتباطات الزوجية المبنية علي الحب دون ما عداه، والمناخ الملائم لحركة التنوير.

وتستند القصة إلي مفارقة حادة بين عالمين، عالم الراوية الأستاذة الجامعية كفتاة فى الستينات، والعالم الراهن لابنتها التى تتحجب، وتلاميذها الذين لا ينتمون، وجارها الذى يرفض الآن أن يصافحها خشية تدنيس يديه من مصافحة امرأة، والمرأة الجاهلة التى تحاول هداية الأستاذة الجامعية إلي صواب الطريق. وزميلة الراوية التى ناضلت طويلا لتعمل تسائل الآن قيمة العمل، وزيجة الأستاذة الجامعية التى نجحت قديما تتعثر الآن تمشيا مع مناخ عام متخبط شديد التخبط، يرتد فى هوس إلي الغيبيات وإلي عالم مثالى سلفى موهوم يستحيل تحقيقه علي أرض الواقع.

وإثر هذه المفارقة الحادة بين عالم الأمس واليوم يأتى الانفجار والأستاذة فى طريقها إلي الجامعة. وفى سؤال ملىء بالدلالة تتساءل الأستاذة من أين أتي الانفجار، أَمِن خارج البلد أم من داخلها، وتتساءل أيضا، أهذا هو موتها هى أم موتَ كل ما يمثله جيلها والموت بالطبع موت كل ما يمثله جيلها.

$ $ $

فى قصة الكاتبة المصرية *اعتدال عثمان* «السلطانة»، تستدعى

عملية المزج بين الواقعى والأسطورى الأسلوب الغنائى السخى وأجواء القصور الأسطورية والسحر والانتقال من كينونة الجماد إلي كينونة الانسان، وأجواء ألف ليلة وليلة وقد انصبت فى اطار واقعى يعلق علي العدالة وانعدام العدالة، علي حرية الفرد وانعدام هذه الحرية. وعلي الأصالة والزيف فى واقعنا الاجتماعى الحالى وعلي معاناة الفرد فى مثل هذا المجتمع نتيجة لانعدام العدل والحرية وسيادة الزيف. ومن تناقض الأسطورى والسحرى من جهة والواقعى ينبع التأثير الفنى لهذه القصة محملا بالمعني.

وقصة «السلطانة» أكثر تركيبا مما يبدو للوهلة الأولي، فهناك العمة سلطانة المرأة الريفية، نبت الأرض ونبع الحنان، التى تحكى لأطفال القرية حكاياتها تكسر الواقع وتتخطاه، وتجسد ما تحكى وتعيشه، وتنقل معها أطفال القرية إلي أجواء الحكايات الأسطورية. وهناك الراوية الطفلة ثم الشابة الصحفية التى تروى القصة من خلال عينيها المبهورتين بالعمة سلطانة والمشغولة بمغزي الأساطير التى تستمع اليها. وهناك الحكاية الأسطورية ذات الدلالة الواقعية التى تحكيها العمة سلطانة والتى تترسب فى أعماق الراوية وهى تكبر، وهى تمارس عملها كصحفية، وهى تكتشف أن جو الزيف مُعدي وأنها وقعت، رغم كل شىء فى دائرة الزيف.

والعمة سلطانة الواقعية واقعية الحياة التى تصفها تشبيهات واستعارات حسية مستمدة من أعماق الريف، تستمد بدورها أبعادا أسطورية ترمز الي تاريخ مصر الحديث من عرابى إلي جمال عبد الناصر. وتنعكس الحكايات الأسطورية التى تحكيها العمة سلطانة علي تاريخ مصر، ماضيه وحاضره، وعلي اللحظة الآنية التى تعيشها بكل ما يشوبها من زيف، وما من أحد بمنجاة فى ظل غيبة العدل والحرية وسيادة الزيف. والراوية ذاتها تعانى نتيجة لذلك وهى تكاد تقع

وتشترك فى عملية التزييف، وإن تراجعت فى اللحظة الأخيرة وترحمت علي العمة سلطانة وهى تمزق مقالها الصحفى الملىء بالعبارات الطنانة الزائفة، ومدير التحرير لا يجسر علي الكلام فهو يعى محنتها لأنها محنة الجميع.

(ب)

تتبع الكاتبة اللبنانية *حنان الشيخ* فى قصة «صريف أقلام الملائكة» لونا من ألوان القهر المستتر الذى ينزل بالمرأة وخاصة فى دورها كزوجة. والمتعة الزوجية العاطفية فيها والجسدية حق من حقوق الرجل، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للمرأة. والمجتمع يفرض علي المرأة، وخاصة فى دورها كزوجة، نوعا من التطهر أشبه ما يكون بالرهبنة، ونكرانا كاملا للذات، وللمتطلبات الطبيعية والمشروعة لهذه الذات. وتتآزر علي فرض هذا الوضع علي المرأة شبكة هائلة من التقاليد والأعراف والأساطير التى ينسب بعضها إلي الدين تجعل المرأة التى تسعي فى زيجتها إلي المتعة امرأة متمردة علي مقدسات مجتمعها، وعلي متطلبات دينها.

ومن خلال هذه الشبكة الهائلة من المعتقدات يقوم المجتمع النسائى المقهور بإعادة انتاج ذاته، وضمان الاستمرار علي ذات الوضع المقهور. والمجتمع يقهر والرجل يقهر، ولكن المرأة ومجموع النساء هن فى نهاية الأمر، كما يتضح لنا من هذه القصة، صانعات هذا اللون من القهر، والمروّجات له، وضحاياه أيضا. والمرأة فى هذا الاطار، كما يتضح من هذه القصة، هى حارسة القمع بدونها لا يستمر ولا يستأسد، وهى الحامية للتقاليد والأعراف البالية التى تنكر علي المرأة حقها الطبيعى والمشروع فى الحياة.

وتتتبع *حنان الشيخ* شخصيتها فى لحظة شعورية مكثفة، وفى

وضع متطرف للغاية يتأتي فيه عليها أن تختار اختيارا وجوديا، إن كان ثمة اختيار، بين النار والنار. ورشيدة كما سماها أهلها وزوجها الأول وشادية كما سماها حبيبها وزوجها الثانى تجلس فى معزي هذا الزوج الحبيب الذى مات فى حادثة سيارة تحيط بها النساء من أقاربه وأقاربها. وشادية تجلس فى المعزي مثخنة بالجراح متمنية الموت لتفلت من ضرورة العودة إلي زوجها الأول وأبى طفلتها. ولكن حتي الموت لن يحمل لشادية الإفلات، فهى إن تابت وأنابت ودخلت الجنة ستلحق بزوجها الأول لا زوجها الثانى كما تقول عمتها وكما تؤكد بقية النساء. ويتعين علي شادية أن تختار بين النار فى الدنيا والنار فى الآخرة، وتختار فعلا وهى تستبعد صورتين، صورتها مع زوجها الأول فى السرير، وصورتها معه علي أرض الجنة، والحصار مكتمل الدائرة فى الدنيا وفى الآخرة.

ويتم الاختيار فى ظل وضع متطرف للغاية، وفى ظل مفارقة حادة تستند إليها القصة بين عالمين، العالم الذى عرفت فيه شادية المتعة والإشباع العاطفى والجسدى، وعالم الأوامر والنواهى الذى ينكر علي المرأة حقها المشروع فى الحياة ويحولها إلي مجرد أداة للإنجاب والحفاظ علي النسل. وتُغْنى الكاتبة هذا العالم الأخير بالعديد من المستويات من الأعراف والخرافات والتلويح بالعقاب الذى ينتظر المرأة المتمردة فى النار.

$ $ $

التفرد أعدي أعداء العادى والمألوف وهو القانون الذى تسنه الأطر الاجتماعية والسلوكية وتذل به أعناقنا ونحن نحيا حياتنا اليومية الرتيبة. العادى والمألوف هو قدرنا ولعنتنا، وهو الآلة التى تحبس الناس فى أدوارها الاجتماعية، وتخلق الأشباه بعد الأشباه،

وتعلن الحرب علي من يجرؤ علي التفرد والاختلاف. وعلي باب العادى والمألوف يقف الكل حراسا يصرون علي تشابه الكل وتواؤم الكل مع أنماط السلوك التى تعيد إنتاج ذات المجتمع وموقع ذات الشريحة الاجتماعية فى ظله. وتتكرر ذات التيمة فى أكثر من قصة من قصص المجموعة التى تنطوى علي تمرد علي العادى والمألوف وتصدى الآخرين لقمع هذا التمرد. وهى موجودة فى قصة رضوي عاشور «رأيت النخل»، وقصة *حنان الشيخ* «صريف أقلام الملائكة»، وفى قصة *سلمي مطر سيف* «النشيد»، وفى قصة *لطيفة باقا* «حذاء بدون كعب» كما سيتضح لنا فيما بعد. وتستمد ذات التيمة أبعادا كبيرة تكنى عن إمكانيات المرأة المهدرة فى قصة الكاتبة المصرية *سلوي بكر* «كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها».

وتبدأ قصة «كل ذلك الصوت الجميل» والموقف يتحرك، والزوجة المدحورة التى تنتمى للطبقة الوسطي الصغيرة والتى فقدت فرديتها فى روتين الحياة العادية تكتشف بعضا من إمكانياتها الفردية، فصوتها الذى بقى محبوسا معذبا ومدحورا يكشف عن نفسه كصوت فى غاية الجمال. والاكتشاف يواتى «سيدة» فجأة وهى تستحم، ويواتيها وقد فاتت سن الأربعين، سن التفتح والازدهار للمرأة كما يجب أن يكون، وسن بداية النهاية كما هو فى واقع الأمر المدحور. و «سيدة» تستطيع الآن وقد فاتت الأربعين أن تتخفف من مطالب البيت والأولاد، وأن تكتشف بعضا من إمكانياتها الخبيئة. ولكن سن الأربعين هو فى واقع المرأة المدحور سن الفرص المتاحة والمهدرة معا.

وتفضى سيدة التى تستشعر الآن الجمال وتتذوقه باكتشافها لصوتها الجميل إلي الزوج الذى يتهمها بالجنون. ولا يختلف رد فعل الزوج عن رد فعل البقال أو الطبيب النفسى، فكلهم يفترضون مسبقا أن سيدة قد جنت لأنها اختلفت وتمردت علي القالب الاجتماعى الذى

صب لها، وكلهم يتفقون مسبقا علي أن لا صوت لسيدة، ولا ينبغى أن يكون، وكلهم يتآمرون، بوعى أو بلا وعى علي إجهاض الإمكانية الفردية التى اكتشفتها سيدة فى ذاتها، وعلي وأد كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها قبل أن ينطلق محطما للمألوف والمعروف والمتداول، ومحررا لها وللآخرين.

وتقف *سلوي بكر* إزاء امكانيتين لإنهاء قصتها، فإما أن تنطلق سيدة محطمة للقوالب الاجتماعية التى تحبسها، وتنطلق تغنى مغتنية ومغنية للآخرين رغم كل العوامل القاهرة التى تحاول إحباطها، وإما أن تتراجع تحت وطأة هذه العوامل مندرجة، وقد فقدت الثقة فى نفسها وامكانياتها الفردية، فى قالبها الاجتماعى كست بيت من جديد. واختارت سلوي بكر النهاية الثانية من حيث هى نهاية حتمية فى حالة سيدة بالذات والأوضاع التى عاشتها، ومن حيث هى نهاية نمطية تشير إلي مآل الكثير من النساء.

وفى سيدة تجد كل امرأة جانبا من نفسها، وجانبا من امكانياتها المهدرة، بل وقد تمتد الدلالة إلي الأفراد من الرجال أنفسهم وإلي امكانيات كل منهم المهدرة.

$ $ $

فى قصة «حذاء بدون كعب»، تبنى الكاتبة المغربية *لطيفة باقا* عالما صغيرا مكثفا شديد التكثيف يكنى عن وضعية المرأة، وبصورة غير مباشرة عن وضعية الرجل فى المجتمع. وعالم لطيفة باقا فى هذه القصة عالم مقهور علي أكثر من مستوي ميتافيزيقى واجتماعى. والموت يجلل قاعة النساء فى هذه المصحة الصدرية التى يدور فيها الحدث. وخط «ميلودة» التى تموت فى نهاية القصة خط تبدأ به القصة وتنتهى. وصورة الأشعة لرئتى «ميلودة» لا تنبئ فى البداية

بالخطر وهى ليست حالة ميئوسا من علاجها، كما يقول الطبيب. وبالرغم من هذا تموت «ميلودة» فى نهاية الحدث ربما نتيجة للأوضاع المتردية فى قاعة عديمة التدفئة والتهوية مغلقة النافذة.

وليس الموت وحده ولا احتمال الموت هو الذى يجلل وجود المريضات فى هذا الجناح النسائى لمستشفي الصدر بل العزلة أيضا وكل صور القهر والأوامر والنواهى. والنساء معزولات عن الرجال عزلا تاما، والنافذة المغلقة تشير إلي ماضٍ تم فيه الاتصال بين رجل وامرأة من مريضات الجناح، وتشير أيضا إلىً استحالة عودة هذا الاتصال. وحركة المريضات محسوبة ومقيدة بسلسلة من الأوامر والنواهى وارتياد الحديقة محرم عليهن.

وتغْنى الكاتبة العالم الصغير المكثف بالعديد من الشخصيات الحية وتحرص فيما تحرص علي أن يكن ممثلات جغرافيا لنساء المغرب، ونحن نجد أيضا أنفسنا إزاء «الدكالية» الفقيرة التى تأكل الشيكولاته بالعيش، والتى نقلها زوجها قسرا إلي المستشفي، و «الزايانية»، العاملة قديما فى بار والتي ترقص فى المستشفي عارية، وحلومة «الزمورية» التى احترفت الدعارة بعد اعتداء قريب لها عليها، والتى تلعب دورا مهما فى الحدث فى تضاد وتقابل مع الراوية المثقفة. هذا الي جانب العديد من الشخصيات من المريضات وادارة المستشفي. و منهن الممرضة نوال «التى يفسر جسدها الصغير كطفلة غرورها واعتدادها المضحك»، والطبيبة «ذات الشعر الأحمر كالجنيات»، والمريضة«أمينة» التى تقع فى أسر حبيب عنين، يلوّح لها بالإشباع ولا يشبعها أبدا، والذى تقول عنه «ليس شاذا ... ولكنه ظاهرة شبه عامة بين هذا النوع من الرجال».

وفى قصة الكاتبة الشابة *لطيفة باقا* يواتينا الحدث فى شكل

مذكرات يومية تكتبها مريضة فى الأيام الأخيرة من عام لا يحدد تاريخه لأنه عام ككل الأعوام، وهى تبدأ فى 12/24 وتنتهى فى 12/30. وتتسم لغة القصة، بهذا الاسترسال وهذه العفوية التى تتسم بها عادة المذكرات اليومية. ويتيح هذا الاسترسال وهذه العفوية للكاتبة الانتقال من داخل المستشفي إلي خارجها وهى تتتبع مسار العديد من الشخصيات فى ماضيها وحاضرها مما يؤدى إلي تعميق هذا العالم الصغير المقهور بدوائر أوسع وأوسع.

وكاتبة المذكرات لا تفصح بالطبع عن هويتها، ويتعين علينا كقراء أن نتعرف عليها مما تقول أو تفعل أو ما تسجل من منظور للآخرين عنها. وهى مثقفة تصفها نوال المرضة بالفوضوية، وتضعها فى موضع اليسار المتطرف، وهى قارئة وواعية، كما تصفها الطبيبة، وهى مثقفة من نوع خاص تهرب بصحبة «حلومة» العاهرة من المستشفي لتحضر ليلة شعرية، وترفع للحارس حين تخترق النظام إصبعها الوسطي. وهى تقرأ الجرائد بنهم وتفكر فى تحريض المريضات وتكتب علي صورة أهدتها لها حلومة «أكثر النساء حقيقية وعفوية عاهرات».

وعالم لطيفة باقا الصغير عالم شديد الكثافة متعدد المستويات والأبعاد يستثير بشدة القهر الواقع علي المرأة فى العالم الكبير، ويشير بصورة غير مباشرة إلي القهر الواقع علي الرجل أيضا.

$ $ $

فى قصة «النشيد» للكاتبة الشابة *سلمي مطر سيف* من الإمارات مفارقة بين عالمين، عالم جد الراوية القاسى وأمها المقموعة وعالم الجارية السوداء دهمة. وتنتهى القصة وقد اختارت الراوية عالم دهمة دون عالمها. واختيار الراوية اختيار بين ما هو عادى ومألوف وما هو متفرد ومختلف، بين ما هو تقليدى وما هو غير تقليدى، ما يخضع

للعادات والسلوكيات المزيفة وما يخضع للأخلاقيات الاصيلة، بين ما هو مجدب وقاحل ومحروم من نبض الحياة الدافق وما هو مزدهر متجدد دائب الخصب والنماء.

ويصلنا الحدث من خلال وجهة نظر الراوية التى تحتضن فى نهاية القصة عالم الجارية دون عالم جدها. ونحن نري الجارية من منظور هذه الراوية فى إطار أسطورى. ودهمة بجمالها الخارق وجسدها الممشوق وعنقها المجدول بآثار الضرب هى الأرض، ورائحتها أشبه برائحة التراب أتي عليه الطل، وهى الشجرة التى تبتدع ذاتها ونشيدها الذى تطلقه دائما هو نشيد الخلق والخصب والنماء والتجاوز والحب.

وتحكى لنا الراوية قصة افتتانها بالجارية السوداء التى انتقلت إلي الجيرة حديثا وشىء ما أقوي من الفتاة يجذبها الي الجارية المرة بعد المرة رغم العقاب الصارم بالضرب الذى ينزله بها جدها كل مرة، ورغم تحذيرات أمها، وربما بسبب هذا العقاب وهذه التحذيرات ، تقول الراوية «يسحبنى مقت جدى للمرأة إلي المرأة»، و «داخلى يموج بشعور ظامئ صوب دهمة التى تفترس جدى». وتحاكم أسرة الفتاة دهمة بالأحكام الأخلاقية التقليدية. ويقال لإثناء الفتاة عن دهمة إنها سكيرة عربيدة وإنها أم لعشرة أطفال سفاح، ولكن دهمة الأسطورة تفلت من القالب الأخلاقى التقليدى.

وفى خطين متوازيين تقدم الكاتبة قصة افتتان الفتاة بدهمة، وقصة دهمة ذاتها فى الماضى والحاضر، ولا يلتقى الخطان إلا قرابة النهاية حين تكتشف الفتاة أن دهمة فى حكم جدتها. وتلتحم بها التحاما لا يقوي علي حلّه إنسان وقد اكتسبت بعضا من قوتها ومن قدرتها علي الخلق والخصب، ورددت نشيدها، نشيد الخلق والخصب.

$ $ $

يصلنا الحدث فى قصة الكاتبة السورية *الشابة سلوي* نعيمى : «القيلولة» من منظور راوية تحضر مؤتمرا عن «المرأة العربية بين الاستقلال والتبعية» يناقش الظروف التى أدت إلي حرمان المرأة من المشاركة فى الإبداع الحضارى. وتستخدم الكاتبة فى رواية حدثها مجري شعور الراوية. ومجري الشعور هذا يتيح للكاتبة أن تطيح بالمستويات الزمانية، وأن تسجل ما حدث للراوية من تجربة شخصية مهمة فى المؤتمر، وما بعد المؤتمر إثر عودتها إلي سورية.

ومن خلال مجري شعور الراوية نلتقى بمستويين من مستويات المعني، مستوي خاص شديد الخصوصية يتصل بتجربة الراوية الخاصة والحميمية مع رجل التقته فى المؤتمر، ومستوي عام يتصل بوضعية المرأة فى واقعنا العربى. وتتأرجح هذه الوضعية بين سلسلة من الثنائيات التى يتسم بها مجتمعنا ما بين القديم والجديد، النظرية والتطبيق، المعلن والمستور والظاهر والباطن. ونجد أنفسنا فى القصة إزاء جدل غير محسوم علي المستويين، وإزاء مفارقة حادة مبنية علي التناقض فيما بينهما، وتسبغ المفارقة الحادة روح السخرية علي قصة مكتوبة بإتقان فنى متميز.

(ج)

يوافينا الحدث فى قصة الكاتبة الفلسطينية *ليانة بدر* «ألوان» من وجهة نظر امرأة فلسطينية عاشت المحنة بداية من 1967 والاجتياح الاسرائيلى للضفة الغربية وبلدتها أريحا ومرورا بالحرب الأهلية فى لبنان واجتياح اسرائيل لها سنة 1982 وترحيل الفلسطينيين من لبنان واستقرار الراوية مع من استقروا فى تونس.

وتبدأ القصة والراوية طفلة سنة 1967، وتنتهى فى الوقت الآنى وهى أم لأطفال، وان لم تلتزم الكاتبة بالتسلسل التاريخى، فنحن نتلقي الحدث من وجهة نظر الراوية كامرأة تعيش فى تونس وتسترجع ما مضى. وتربط ما بين بداية الحدث ونهايته لوحة أبدعتها سنة 1967 زوجة الطبيب الريفى وأم الراوية قبل أن تموت إثر مرض عضال لمشهد تطل عليه نافذتها فى أريحا، ولوحة أخري لذات المشهد يبدعها حنين الراوية إلي أريحا والزمن قد انقضي والمدن قد تبدلت والحنين هو الحنين إلي أرض المولد والصبا.

واللوحة الأصلية التى أبدعتها الأم تنتقل والراوية من بلد إلي بلد ومن بيت إلي بيت إلي أن تفقد علي يد حراس الحدود ولا تصل إلي البلدة الأخيرة التى تقيم فيها الراوية. واللوحة هى الذاكرة القومية، ذاكرة الوطن وقد استمدت من الأبعاد ما يجعل فقدها كارثة. وحين يحل محل اللوحة المفقودة بديل تستمر ذاكرة الوطن حاضرة.

وعادة ما يتهدد عامل التسجيل مثل هذه القصة التى تزدحم بالأحداث العامة عبر سنوات طويلة، غير ان قصة ليانة بدر تحاصر العامل التسجيلى، ووعى الراوية يُوّحد ويكثف فلا نري الأحداث إلا من منظورها الخاص، ومن خلال انفعالها بما يحدث، والقصة قصة الراوية بقدر ما هى قصة كل هذه الأحداث المهمة. وفى تصويرها لوعى الراوية تخلط الكاتبة بين العام والخاص، والجليل والتافه، وبين ما يبدو مهما وما لا يبدو كذلك. ولأن الكاتبة تمزج بين كل هذه العناصر المتناقضة المتنافرة فتيار الحياة ينسل من وعى الراوية متدفقا كما يفعل فى الحياة، دون وقوع فى الأحادية أو فى النغمة الخطابية. والناس تحيا فى لبنان فى ظل القصف الدائب حياتها وتعيش اهتماماتها الصغيرة والكبيرة وعصافير الكناريا التى لا تفرخ نتيجة للقصف وتموت نتيجة للقصف لا تقل أهمية عن قنابل النابالم

الاسرائيلية. وفى ظل القصف المتواصل تنشغل الراوية بملوِّن الجفون وتسأل صديقتها ان كان البنى أنسب لها أم الفضى، والبنى يعطى العينين عمقا أكبر، والفضى يلتمع بالفرح علي عينين حزينتين، والأحداث تداهم الراوية فلا تفوز بالبنى ولا بالفضى.

$ $ $

تحكى الكاتبة المصرية *سهام بيومى* فى قصة «الطائر الأزرق» قصة حب رومانسية تنتهى بالإحباط، والحب بين «زهرة» ضاربة الودع المصرية، والبحار «خوليوس» اليونانى الجنسية علي الأرجح. ويجرى الحدث فى ميناء مصرى يركن إليه «خوليوس» قليلا ثم ما يلبث أن يرحل منهيا لقصة الحب.

وترسي سهام بيومى النهاية المحتومة قرابةالبداية مستخدمة طائر النورس المهاجر ليشير إلي الحبيب «خوليوس» وذلك فى محاولة لإعداد القارئ للنهاية المحتومة لذلك الحب. وتتعلق عينا « زهرة» فى الصفحة الأولي من القصة بسرب النوارس المحلقة حين ينفصل أحدها، منقضا علي صفحة الماء فى حركة دائرية، ثم يواصل صعوده الدائرى، ملتحما بالسرب الذى يواصل التحليق بعيدا، وكل إلي أهله وناسه وأرضه يئوب. وفى نهاية القصة يقترب سرب من طيور النورس وتشعر «زهرة» بوخزة فى الضلوع، ومن لفافة زهرة ينفلت طائر أزرق يرفرف متوهجا ثم يشرع جناحيه طائرا نحو الأعالى.

وقصة *سهام بيومى* تحكى ما هو أكبر من قصة حب رومانسى ينتهى بالفقد، وهى فى الأساس قصة أجواء، أجواء الميناء وأجواء البحر تحكى تشوقات أهل البلدة إلي البحر وما خلف البحر، إلي المجهول، إلي غريب ومألوف. وتدرج القصة كل ذلك فى حتمية الغربة والاغتراب بين البشر، وحتمية عودة كل إلي سربه ولو بعد حين. وتخلق

الكاتبة هذه الأجواء المتشوقة والمحبطة معا باستخدام لغة شاعرية محملة بالمعانى والإيحاءات.

$ $ $

تحمل قصة «شرف البشارة» للكاتبة المغربية *ربيعة ريحان* عنوانا ساخرا من علاقة حب بين رجل وامرأة تضعها الكاتبة موضع التشريح الدقيق لمختلف انفعالاتها المركبة والمعقدة. وتستطيل الجملة فى القصة مركبة ومحملة بظلال المشاعر المتباينة الواحدة بعد الأخري. وتنجح الكاتبة فى تصوير علاقة حب عصرية تقوم علي الحب وعلي الصراع أيضا بين الرجل والمرأة، هذا الحب المشبوب الذى يراق علي جوانبه الدم. وتمنحنا والأمر كذلك، بصيرة بعلاقة تكاد أن تكون الآن نمطية بين الرجل والمرأة.

ويواتينا الحدث من خلال وجهة نظر امرأة هى الراوية للحدث. وهذه الراوية للحدث امرأة عربية عصرية، وهى عصرية من حيث ترفض المرة بعد المرة الضياع فى الآخر والخضوع له خضوعا كاملا. وهى تحاول أن تقترب، وأن تصفو، وتفضى وتتواصل، وتبقى علي العلاقة ولكنها لا تستسلم كلية، وتبقي محتفظة بهويتها الحرة والمستقلة، قادرة علي السخرية من العلاقة التى تنخرط فيها.

$ $ $

تتناول الكاتبة اللبنانية *هادية سعيد* فى قصة: «أنا وهى» الثالوث التقليدى، وهو هنا الزوج والزوجة والمرأة الأخري. وتبدأ الراوية وهى الزوجة الحدث من النهاية حين تكتشف مرض غريمتها، أو من تتوهم أنها غريمتها بمرض السرطان، ثم تستعيد الأحداث من البداية مفصحة عن أدق مشاعرها إلي أن توصلنا الي النهاية من جديد

متمنية الشفاء لنفسها ولغريمتها. وتتبدي استحالة الشفاء فى الحالتين وفقا لمنطق القصة ذاتها. والغريمة مريضة بالسرطان والزوجة مريضة بأوهام الغيرة التى تعيش وتقتات عليها، ولعل من شأن موت الغريمة بهذا المرض العصى أن يُشحذ خيال الغيرة عند الزوجة.

والحدث كما يواتينا من منظور الراوية يتضمن فيما يتضمن لحظة اكتشاف، وينطوى فيما ينطوى علي انقلاب درامى. اذ تكتشف الراوية تدريجيا وهى تحكى لنا الحكاية أنها بدورها مريضة.

وعلاقة الزوجة بالغريمة التى لا تشكل أى تهديد حقيقى للزيجة علاقة ملتبسة ومعقدة. والزوجة التى تدعى الحب لزوجها إلي درجة التدله تخدع نفسها ولا تخدعنا كقراء وفقا لسياق الحكاية ذاتها، وعلاقة الغيرة بين الزوجة والغريمة تتجاوز الزوج موضع النزاع وتزّود الزوجة بهذه الإثارة التى أصبحت تفتقدها فى زيجتها، وهى بهذه الغيرة الحمقاء تخلق الإثارة من لا شىء.

ونحن نجد أنفسنا فى قصة *هادية سعيد* إزاء علاج غير تقليدى لموضوع تقليدى.

$ $ $

تكتب الكاتبة التونسية *عروسية النالوتى* قصة «علمتنى يا أبَتِ أن أحضن الحياة» بأسلوب شاعرى يتلاءم ولحظة الخلق، أسلوب تتشابك فيه الصور الشعرية الجميلة وتندرج جنبا إلي جنب مع شاعرية اللغة العامية التونسية. وتتتبع الكاتبة لحظة ميلاد عصيبة تبدو حتي بالنسبة للأطباء شبه مستعصية. وهى لا تتتبع هذه اللحظة من وجهة نظر المرأة التى تضع كما هو المتبع تقليديا، بل تتتبعها من وجهة نظر الزوج الذى يقف عاجزا عن العون لساعات ثم يقتحم

الغرفة رغم الأوامر والنواهى يساعد الزوجة فى استكمال ما بدأت ويتلقي دون الأطباء الطفل بين يديه، وكأنما قد شارك فى عملية الخلق ذاتها. وهو قد فعل إلي حد كبير كما يتضح من مستويات المعني التى تضفيها الكاتبة علي الحدث.

الخصب عند *عروسية النالوتى* لا يتجزأ، خصب الأرض وخصب المرأة فهو الخلق الذى يصنع الحياة ويغنيها، والحب والخصب قرينان فلا حب بلا خصب ولا خصب بلا حب، والرجل والمرأة قرينان، يخلق الرجل ما تحلي بالحب بمثل ما تخلق المرأة ويكني عن الأرض بمثل ما تكنى المرأة.

ونحن نجد المرأة تكنى عادة عن الأرض والخصب كما فى قصة رضوي عاشور «رأيت النخل»، وفى قصة سلمي مطر سيف «النشيد» التى تكنى فيها«دهمة» المرأة الأسطورية عن الأرض والخلق والحب معا. أما فى قصة عروسية النالوتى فالمرأة لا تنفرد عن الرجل بهذه الكناية وان كانت هى أداة الخلق، وإن دارت القصة حول لحظة تضع فيها المرأة وليدها. والرجل فى هذه القصة يكنى بدوره عن الأرض والخصب معا.

نتلقي الحدث فى هذه القصة من منظور الراوى الذى هو الزوج الذى يتتبع عملية الوضع فى تأزمها وانفراجها، ومجري شعوره يربط بين الخارجى والداخلى، ما يحدث علي المستوي المادى وعلي المستوي النفسى، ما بين حاضر لحظة الخلق وتعثرها والخلفية الماضية التى تنبئ بتحقق الكثير من لحظات الخصب والحب والخلق. وهذا التتبع للحظات الماضية هو الذى يدفع بالزوج إلي غرفة العمليات معينا للزوجة الحبيبة علي استكمال ما بدأت. ومستويات المعني تتجمع وتتلاقي وتتراكم مغنية للمعني الكلى للقصة، ومن مقولة من الماء خلقنا كل شىء حى تتوالي المستويات التى تستخدم هذه المقولة كأساس

للكثير من الصور الجميلة.

والحب فى هذه العائلة يمتد كما يمتد شريان الحياة من الأب إلي الابن. والأب فى هذه القصة هو الذى علم الزوج الراوى كيف يحب ومن ثم كيف يخلق الحياة، والأب الذى يكنى فى القصة عن الأرض هو «حارثها والفلح فى سهول جبينه قاهر نتوءاتها وتضاريسها ونتوء الزمن علي جبينه». وصورة الأب لا تفارق خيال الزوج الراوى لحظة تعثر زوجته فى عملية الإنجاب، وهو يري أباه ونقرات أصابعه توسع الشقوق للنباتات تساعد جهادها المشروع من أجل الحياة، ومثلما يفعل الأب مع النبات يفعل الزوج مع زوجته «الخضرا» لحظة تأزم الوضع.

ومثلما يُكنُّ الأب لزوجته حبا كبيرا، ويحلى رأسها كل يوم بعصابة رأس، يفعل الزوج مع زوجته الخضرا بعد انتهاء الوضع. ومثلما تجود الأرض لمن يحبها بالحصاد تجود «الخضرا» للزوج بالمولود، والحب هو الذى يأتى فى نهاية الأمر بالحصاد وبالقدرة علي الخلق.

$ $ $

وتعمل قصة «الشيخوخة» للكاتبة المصرية *لطيفة الزيات* علي جبهة القيم والسلوكيات وترسي قيما تعارض علي أساسها بعض القيم التى تتحكم فى مجتمعنا. وتسائل الشخصية القصصية مفهوم الحب السائد والقائم علي التوحد والفناء فى الآخر، وتذهب إلي أن التوحد فى الحب بين الرجل والمرأة لا يعنى سوي وأد ذات من الذاتين لحساب الآخر. كما تسائل الشخصية القصصية مفهوم الزمن والمطلق والمسئولية الإنسانية، وتسائلها بقيمها الخاصة والمتفردة كامرأة تجيد مواجهة الذات وتحليل أعماقها.

وتنطوى قصة «الشيخوخة» علي لحظة اكتشاف يلقى الضوء

علي عمر بأكمله، وتنطوى ثانيا علي تراكم زمانى للوعى يجعل لحظة الاكتشاف ممكنة، وحين يلتقى التراكم بالاكتشاف تنتقل التجربة من الانقسام إلي الالتئام، ومن التجزئة إلي الوحدة.

وتستخدم الكاتبة اليوميات لرصد لحظة الاكتشاف فى محاولة لتصوير هذه اللحظة تصويرا فنيا مماثلا للنمط الذى تقع به مثيلتها فى الحياة، وتحاول أن تمسك بلحظة الاكتشاف بكل أبعادها المركبة وبكل ما يكتنف اكتمالها من تدرج يتمثل فى غيبة الوعى والفهم والرفض لهما والتخبط نحوهما والتوصل بعد عناء لهذا الوعى والفهم. وباختصار حاولت الكاتبة أن تكون للحظة الاكتشاف صيرورتها من البدء إلي التكامل كما تتمتع لحظة الاكتشاف المعاشة بهذه الصيرورة. وقد عاونت صيغة اليوميات الكاتبة فى الإيحاء بهذه الصيرورة الفنية، فالحدث يقع تحت أعيننا كما يقع فى الحياة، ولا يكتمل إلا بنهاية القصة.

ولأن لحظة الاكتشاف فى القصة تواتى الشخصية كمحصلة لتراكمات معرفية معاشة تم تحليلها وتقويمها فعلا فى ماضى الحدث، استحال الاعتماد علي صيغة اليوميات دون ماعداها، ومزجت الكاتبة فى «الشيخوخة» بين صيغة اليوميات من ناحية وصيغة مذكرات من نوع خاص من ناحية أخري. وهذه المذكرات شبيهة بالقصة القصيرة التقليدية من حيث هى تحليل للحدث بعد أن وقع الحدث، ومن منظور النهاية التى انتهي إليها الحدث. واستهدفت الكاتبة بالمزج الاسلوبى إضفاء طابع التكامل علي التجربة بتصوير لحظة الصيرورة مع الإمساك بجذور هذه الصيرورة.

ودعا الكاتبة هدف إضافى إلي استخدام صيغة اليوميات والمذكرات، أى صيغة المتكلم دون الغائب فى قصة «الشيخوخة»، فلكى تصل الرسالة الوجدانية والعقلية التى تنطوى عليها القصة للقارئ،

يتعين عليه / عليها أن يواجه ذاته، وأن يسائل الكثير من الأوهام الراسخة عن هذه الذات. وهذا أمر ليس بالسهل ويتطلب من الكاتب مساعدة القارئ علي إنجازه، ومن شأن استخدام ضمير المتكلم لذات تضع نفسها موضع التشريح الموجع أن يسقط الكثير من تحفظات المتلقى، وأن يشجعه علي مواجهة مماثلة للذات، وبهذا تمنت الكاتبة أن تكتمل دائرة التلقى.

لطيفة الزيات

أميلى نصر الله

ليلي والذئب

أوصتها أمها، منذ أن خطت خطوتها الأولي، علي طريق الرحلة ... أوصتها لتأخذ حذرها من الذئب ... بل ان التوصيات سبقت تلك اللحظة بزمان، أى حين كانت ليلي طفلة فى المهد، وأمها ترنم لها أشجي الأنغام، لتغفو، وتطبق جفنيها علي أحلام ناعمة.

وكانت الأم تدخل بين كل ترنيمة، وتالية لها، كلمات جديدة، وعبارات معترضة ضمن قوسين مثل: (والذئاب تختبئ عادة، فى الغابات. تفاجئك عند كل منعطف. أحيانا يرتدى الذئب وجه ثعلب، أحيانا وجه أمير .. يا ليلي، لا يغرّنك ذلك. عليك أن تعرفيه فورا، وتحيدى من طريقه.)

«نامى / يا بنتى نامى / حتي أفرش لك / ريش النعامِ»

(ويا ليلي: حين تبصرينه، قادما من المجهول، سائرا علي قائمتين، بدل أربع قوائم، تأكدى بأنه هو، داخل قناع جديد ... .)

«يا الله تنام / يا الله تنام / لاذبح لها طير الحمام / يا حمامات لا تخافوا / عم أضحك عا ليلي تَتّنام ...»

(أحيانا يجىء، متلبسا بكل الوجوه المألوفة. ويقترب منك. بلطف، يقترب ويلقى السلام. يسمعك كلاما له مذاق العسل. احذريه. إذا قال:

أنت جميلة .. يكون هذا الطعم الأول. اذا دعاك إلي مرافقته يبدأ الخطر يهدد حياتك .. قد يسير معك خطوات فى الفلاة، لكنه لابد وأن يجرك الي مغارته وهناك يا ابنتى من يدرى ماذا يحدث ...)

«تكْ، تك، تك، يا ام سليمان/ تك تك تك زوجك وين كان / تك تك تك كَان بالحقله / عْم يقطف خوخ ورمان»

(ويا بنية! احيانا يتجاوز الغابة. يسير معك علي هواك. يعرض خدماته. يقول:

أحمل السلة عنك. أرشدك إلي السبيل. أخشي عليك من الضياع.

يقول لك:

ـ أنت صغيرة، عديمة الخبرة، والعالم شاسع، والدروب محفوفة بالخطر. أرافقك، يقول، أكون عكازك. لا تصدقيه. وارفضى كل ما يقدمه لك من وعود وخدمات. واذا امكن، بّدِّلى الطريق، واسلكى دربا غير دربه ...)

«يا الله تنام ليلي / يا الله تحب النوم / يا الله تجيها العوافي / وتظل دَوْم الدوم»

(ويكون فى بعض الأحيان، مختبئا فى غابة. فى حفرة، أو فى كهف. ربما تبصرينه واقفا فوق قمة التل، عند انحدار الشير. تحسبينه ناطور الكروم، يا غالية! ... لا يخدعنك المظهر الخارجى. إنه الذئب يأتى من كل الطرق، من كل الأماكن يجىء. خصوصا حين يبصر فتاة مثلك، لها هذا الجمال، واللطف، والطيبة. حالما تبصرينه، سارعى خطاك ولا تلتفت عيناك الى حيث يكون، ولا تنظرى مرة الى الوراء. أبقى بصرك مشدودا الى الأمام ، باتجاه غاية الرحلة، بيت جدتك الطيبة. ولا

تتوقفى لتقطفى لها الزهور. أعرف ولعك بزهور البرارى يا ليلي. أعرف مدي إغرائها، خصوصا فى هذا الوقت من السنة. تجاوزى إغراء الزهور، ذاكرة بأن عين الذئب لا تنام، وهى ترصد حركاتك من كل الجهات، ومنذ ما قبل التاريخ. لذا، كان عليك أن تضاعفى يقظتك وحذرك. ولاتدعى الحيلة تنطلى عليك. آه، كم هو محتال، يا ليلي. كم أنه ذكى ومحتال!)

«يا حادى / يا مادى / يا كسار الزبادى / يا الله كَسِّر جوز ولوز / واطعمها لاولادى»

$ $ $

ليلي فى أتم أناقتها. قبعتها الحمراء تتوج رأسها، مثل زهرة «برقوق» عملاقة. وتحتها المعطف من اللون نفسه. والحذاء المربوط بتأنٍ. والسلة معلقة فى كوعها. وعيناها منفتحتان، وشفتاها منفرجتان. كذلك أبقت قنوات السمع مفتوحة، لتستوعب كل الكلام، ومابين الكلام والأنغام. لم ترد مرة علي أمها. لم تطرح سؤالا. ربما شاءت ان تطرح سؤالا، وأحجمت وفى اللحظة التالية نسيت الاسئلة والاجوبة وظلت متذكرة شيئا واحدا: لحظة الانطلاق. انها مشتاقة كثيرا لرؤية وجه جدتها. لكن شوقها الي المغامرة تضاعف الآن. أمها فتحت لها كل الابواب الموصدة، فى الداخل والخارج ودعتها الي المسير.

وهى الآن فى الطريق، تقفز مرحة. تنشد بصوت خافت. تتصادم أصداء نغمها مع زقزقة العصافير فوق اشجار البستان. سوف تسارع خطاها وتنطلق، كالسهم الي الهدف، تماما، مثلما أوصتها امها. مثلما حلمت طوال الليلة الفائتة. سلّتها مملوءة بالكعك، والحلوي اللذيذة، من

اعداد يدى امها. وقد ملأت بطنها جيدا، فزادت فرحتها. وتابعت سيرها، قفزا مرحا.

وطريقها لولبى، يمر وسط الغابة. ليس فى الإمكان تجنب ذلك. وصايا أمها تتمشي تحت جلدها، ويسبقها الصوت ممتزجا بذرات الاثير:

(احذرى الذئب يا ليلي. كونى يقظة أبدا ... و ... الذئب يأتى من كل الجهات. ويرتدى شتي الوجوه.)

ماذا تقول امها؟

لا ذئاب فى هذه الغابة، حيث تتعانق أغصان شجر الشربين والسنديان. هنا تقيم العصافير اللطيفة. ترسل زقزقاتها فتمجد الخالق. ومن قلب الغاب تسمع اصداء موسيقية من نوع آخر، حين ترتطم الرياح، بسيقان القصب والغزار، فتؤلف موسيقي سماوية. لا ... هذا المكان الآمن، مأهول بالوداعة والجمال والنغم العذب، ولا مكان فيه للذئاب.

وهى الآن، فى منتصف الطريق. انعطف بها دربها، وتقدمت صوب السهول المنبسطة، خضراء ترصع صدرها الأزهار من كل لون. هذه ازهارها البرية المألوفة: السكوكع، والنرجس، وشقائق النعمان، والياسمين البرى. وتغمزها أعين الزهر بإغراء. وترفع إحداها الرأس، ليصبح بمستوي سمع الفتاة وتهمس فى أذنها:

- خذينى معك.

تتوقف ليلي والدهشة تعقل لسانها: زهرة، وتتكلم! ...

- ماذا تقولين؟

تسألها غير مصدقة. فتكرر الزهرة، المنفتحة كعين الرحمة، تكرر طلبها بما يشبه الابتهال:

- خذينى معك. اجعلينى رفيقة دربك. سئمت الإقامة وسط هذا المكان الجامد.

وترد ليلي:

- عجيب كلامك. لست وحدك هنا ... وحولك رفيقاتك الأزهار. والنبات من كل صنف. ثم هناك الغابة وسكانها الطيبون. وتزورك النسائم من كل الجهات. لماذا لا يكون هذا العالم ممتعا؟ ... وافْتَرَّتْ بتلات الزهرة عن شبه ابتسامة، وقالت بأسًي:

-أنت لا تفهمين حياة الزهور. لا يمكننى أن أتخذ أى قرار. تملي علىَّ الارادات من كل صوب، وأتلقي. وأنا عاجزة عن الانتقال. عن التحرك من مكانى الي موقع آخر. انظرى كيف تثبتنى جذورى فى أعماق التراب.

انحدرت ليلي بنظرها حتي أسفل الجذع، واكتشفت ان ما قالته الزهرة صحيح. لذا رفعت اليها عينين منكسرتين، وقالت:

- كلامك صحيح. لا يمكنك الخروج من ارتباطك بالتراب.

- إذن، خذينى إليك ...

كررت الزهرة طلبها، فأثارت فى صدر الفتاة شعورا غريبا، جعلها تنحنى وتقطع الساق الدقيقة ... وما ان فعلت ذلك حتي هدر فى اذنيها صوت الرعد. ارتجفت خوفا وتراجعت خطوتين الي الوراء، قبل

أن تقرر ماذا عليها أن تفعل.

لكن الزهرة المنتفضة بين أصابعها دفعتها الي اتخاذ القرار:

– أسرعى، لنهرب، قبل أن ينهمر المطر. إنها عاصفة رعدية مقبلة من الجهة الغربية ... أسرعى.

– وماذا عن ر فيقاتك؟

سألت ليلي، وقد خالجها شعور بالشفقة علي الزهرات الصامتات. ولم تسمع من زهرتها أى جواب. فقررت أن تطوف بنفسها، لتبحث عمن تريد مرافقتها.

وهكذا تابعت قفزها الرشيق، وجمعت بضع زهرات، جعلتها باقة بحجم راحة يدها. وفكرت بأن هذه ستكون هديتها للجدة. ونسيت السلة المعلقة بكوعها.

تفجر الرعد من جديد. رفعت ليلي نظرها الي الفضاء، فأبصرت الغيوم الرمادية تتسابق فى الجو، وكأنها تلاحق فلول جيش فار. وفكرت بأن عليها أن تصل دار الجدة قبل أن تفرغ السماء غضبها. ثم التفتت الي الزهرات تطمئنهن:

– بعد قليل نبلغ بيت الجدة، وهناك، أضمكن فى زهرية من بلّور، وأروى سيقانكن بالماء النظيف ... عما قليل، ونبلغ نهاية الرحلة.

لكن العاصفة لم تمهل، وظلت تشقق صدر الفضاء. وراحت المياه تتدفق بغزارة، فتغمر السهول والحشائش، وتغرق ما بقى من الأزهار. وانهمرت المياه الغزيرة فوق رأس ليلي، وكانت العاصفة قد عرّتْه، حين انتزعت القبعة الحمراء، وقذفتها بعيدا عن مدي الرؤية. وانهمر المطر

فوق السلة المملوءة بالكعك والحلوي، فاختلطت فيها الأشكال والألوان. وهذا ما أخاف الفتاة، ودفعها الي الجرى بسرعة، علّها تنقذ ما تبقي.

قبل أن تبلغ دار جدتها سمعت ليلي وقع قدمين، فعلمت بأن هناك من يتعقبها. وتساءلت إذا كانت أمها قد أرسلت ابن الجيران، ليساعدها. التفتت إلي الوراء لتناديه، فأبصرت مخلوقا، لم تقع عينها علي شبيه له من قبل. كان يرتدى معطفا تكنس أطرافه الأرض، ويعتمر قبعة سوداء تغمر رأسه، وتهبط لتغطى أذنيه وجزءا من عنقه. وقد حجب عينيه بنظارتين سوداوين تخفيان ثلاثة أرباع وجهه. ارتعدت فرقا. وشاءت أن تسأل هذا المخلوق العجيب، من يكون؟ وهل هو الذئب، أم رسوله؟ أم عدوه؟ أم ...

لم يترك لها الفرصة، اقترب بقامته الشامخة، بصوته اللطيف، الناضح إغراء وشهوة، وبلمساته الناعمة، الناعمة، مرر أصابعه فوق وجهها وهمس سؤاله:

- ما اسمك، أيتها اللطيفة الجميلة! ...

- ليلي.

قالت، وهى غير واثقة اذا كانت قد ارتكبت خطأ بإفشاء هذا السر. لكنه لم يعطها الفرصة، كى تحاسب ضميرها، راح يطرح اسئلته .. يرشقها بها كزخات البرد:

- ____من اين جئت؟ والي اين تذهبين؟ من اشتري لك هذا المعطف الجميل؟ من غرس فى وجهك هاتين العينين النرجسيتين؟ ومن حفر فى وجهك هذا الفم العسلى، ثم غرس فوقه الأنف الأشم؟ .. وشعرك، يا جميلة! .. هذا المتهدل علي كتفيك كسنابل القمح .. من

أين جئت بهذا الجمال كله؟ ..

أدركت ليلي، بأنها امام مخلوق لا يشبه احدا من الأشخاص الذين عرفتهم فى محيطها .. وتساءلت:

- أَوَ يكون هذا الذئب؟

وتذكرت كلام أمها، وتحذيرها، وتوصياتها، لكن صدي الكلام ظل بعيدا عن حاضرها. إنها أمام وضع يتعدي كل التوقعات، وعليها ان تتخذ القرار، وتواجه الواقع بشجاعة. لذا رفعت رأسها وأطلقت السؤال:

- وأنت .. من تكون؟ ما هو اسمك؟

- «أبو كاسب»؟

صمتت ليلي، وقد اربكها الجواب، ثم عادت تقول:

- لم أسأل عن اسم ابنك. أريد أن أعرف اسمك أنت؟ الاسم الحقيقى.

- نعم، هذا هو اسمى الحقيقى. والبعض يدعونى «أبو جعدة». يمكنك أن تختارى منهما الاسم الذى يعجبك.

عادت الي صمتها وارتباكها. أمها لم تخبرها كيف تتصرف فى الخطوة التالية. ربما لم تحسبه ذكيا الي هذا الحد، يخترع الأسماء، ويرتديها مثلما يرتدى قناع وجهه. وفكرت بأن أفضل وسيلة تعتمدها هى المواجهة الشجاعة، لذا سمعت شفتيها تتمتمان:

- لا أصدق. أعرفك من تكون .. أنت الذئب. أمى أخبرتنى .

حدثتنى عنك قبل أن أبدأ الرحلة.

قال محتالا:

– لن أعارضك. اختارى من الأسماء ما يروقك. ذلك لا يهم ما دمت، لطيفة، طيبة، وجميلة. لكنك لم تردى علي سؤالى: الي أين أنت ذاهبة؟

– الي دار جدتى.

– وجدتك، هل تقيم بعيدا من هنا؟

– كلا ... هناك منزلها، داخل تلك الحديقة.

ومدت إصبعها بسذاجة، تشير الي المكان. وعاد يسألها:

– وجدتك تقيم وحدها؟

– نعم. وأنا ذاهبة كى أسليها. أحمل إليها سلة كعك وحلوي. وباقة أزهار برية.

اقترب منها أكثر، ومد يده الي السلة، فغاصت فى مزيج رخو:

– لم يعد هناك كعك، ولا حلوي، انظرى؟ ...

وفتح امام عينيها يده المغمسة بالسائل الدبق، حيث اختلطت الحلوي بالكعك.

انهمرت الدموع من عينيها وقالت:

– الحق علي العاصفة الراعدة ...

ربت علي كتفها محاولا إعادة الهدوء الي نفسها:

– أمك لم تحسب حساب العاصفة ...ثم قولى: كيف تركتك تخرجين وحدك؟ ... والغابة مسكونة بالذئاب والوحوش المفترسة؟

جفلتها كلماته. ونظرت بطرف عينيها، فلم تلمح أية علامة من علامات السخرية. بدا مخلصا فى كلامه. ولكى يؤكد إخلاصه، مدّ أنامله وراح يمسح دموعها ويتمتم بحنان:

– اطمئنى، سأبقي معك، ولن أتركك.

شعرت بارتياح يتمشي فى عروقها. ومدت يدها، كى تصافح يد محدثها، وتشكره، ثم تتابع مسيرها. لكنه تطوع بإتمام معروفه، ومرافقتها حتي نهاية الطريق. ثم عبَّر عن اندفاعه عمليا، حين لف ذراعه حول كتفها. ودعاها لتظل بقربه، وتعتمد عليه.

سارت الي جانبه، ترشف اذناها كلامه العذب، وحكاياته النادرة، ونسيت كلام امها. بل راحت الشكوك تساورها، وهى تتذكر بأن أمها خدعتها، وغرست فى صدرها خوفا لا مبرر له. كيف أخافتها وفى الغابة مثل هذا المخلوق، اللطيف حتي الانكسار، الدافئ الهمس، الرقيق اللمسات، والحاضر لحمايتها ورد الخطر عنها؟ ...

كيف تجهل أمها هذه الأمور عنه؟!

وقبل أن تبلغ ليلي دار جدتها كانت قد تعرفت الي ر فيق الرحلة وارتاحت اليه. واعلنت الثورة علي أمها، وعلي تعاليمها «العتيقة»، وارتمت فى دائرة رسمها الذئب حولها، ثم احاطها بالسياج الكثيف، ولم تعد تبصر من الوجود سواه، ولم يعد ينفذ اليها، من وجوه الناس، سوي وجهه، وقد راح ينطبع تدريجيا فى سواد عينيها ويتحول فى ذاتها

رضوي عاشور

رأيت النخل

طال الشتاء فلم أعد قادرة علي الانتظار. لبست معطفى القديم وربطت رأسى بمنديلى الصوفى ونزلت الي الشوارع أقطعها وأتوقف عند الشجر، أنظر وأتحقق. وعندما تفشل عيناى فى رؤية شىء علي الفروع الجافة أمد يدى أجس وأتحسس. أحيانا كانت يداى تتوقفان ويخفق قلبى ثم أكتشف أن ما وجدت ليس هو المنشود بل مجرد عقدة علي فرع جاف. ولكنى كنت واثقة اننى سأجدها، أقصد الكرويات الصلبة الدقيقة التى يخدعك لونها فى البداية فتظنها لا شىء ولكنك لو دققت النظر وجدتها كروية ورمادها ليس رماديا ولا جفافها جفافا. وإن تتابعها وتنتظر تكبر وتتفتح وتكشف لك عن أخضرها الكامن.

كنت أبحث عنها عندما رآنى ذلك الزميل، قال:

– فوزية، ماذا تفعلين فى الشارع فى هذا البرد الملعون، كل الناس تلزم بيوتها؟

قلت:

– أبحث عن البراعم!

فهتف:

- والله انك مجنونة يا فوزية!

كان يمزح، أذكر بوضوح ان صوته كان ضاحكا وان النظرة فى عينيه كانت دافئة وودودة.

وفى نهاية يوم قضيته أبحث عدت إلي بيتى خائبة أتساءل الي متي؟ ساعتها تذكرت زهرة الصبار التى حملتها لى عمتى فاطمة من البلد وكنت قد وضعتها بجوار الباب ونسيتها. وعندما تذكرت قلت لنفسى : لابد من انها ماتت فأنا لم أسقها منذ عدة شهور ولكنى قمت لأراها. كان طينها قد جف وتشقق وأصبح فى لون البن الأشقر، وعودها يبس واصفر رغم انه نما وطال وكانت أوراقها ذات الحواف الابرية علي حالها ناهضة تتفرع من الساق عريضة وتنفتح الي أسفل رفيعة ومدببة. كانت صبارة عمتى تستوى علي سوقها خضراء، رويتها.

أحببت الزرع وصرت أزرع فى آنية من فخار فى علبة فارغة، فى كوب، أى شىء يصلح للزرع أملأه بالطين وأثبت فى العمق اللازم نواة ثمرة، أو فرعا أخضر، وأروى.

أيامها لم يقل أحد اننى مجنونة ولكنهم قالوها بعد ذلك يوم حملوا لى خبر وفاة ابن عمى:

- مات ابن عمك يا فوزية

- مات؟

فلما اكدوا الخبر طلبت منهم أن ينتظروا لأصحبهم لتقديم واجب العزاء. رأونى أقرفص أمامهم وأملأ علبة فارغة بالطين وأرشق فيه عود ريحان وأثبته بالضغط المتكرر بقبضتى علي الطين حتي يمسك بالفرع تماما ويحتضنه ويتماسك ثم غمرته بالماء وقلت:

- الآن بإمكاننا أن نذهب.

رأيتهم يضربون كفا بكف وسمعتهم يقولون « جنت فوزية وعوضنا علي الله» ولم أفهم لماذا قالوا ذلك، واستغربت أكثر عندما سمعت أحدهم يهمس «فوزية تقلد الأغنياء الذين يزينون بيوتهم بالنباتات!» استغربت لأنه من قريتنا ويعرف. نحن فلاحون، صحيح أن النساء فى عائلتنا الصعيدية لا يخرجن الي الحقول للفلاحة ولكن الفلاحة هى حياتهن التى يفتحن عيونهن عليها، ويغمضن ساعة الموت عيونهن عليها أيضا. وأنا أذكر ان بيتنا فى القرية كان علي سطحه نعناعة وفى قاعه صبارة وببابه نخلة. وأذكر أن ابى رحمه الله كان يقول ان النخلة شجرة مباركة أنعم الله بها علي عباده وكرمها بذكرها فى القرآن، وإن النبى صلوات الله عليه قال: أكرموا عماتكم النخل، وانه سمي النخل عماتنا

لأنها خلقت من فضلة طينة آدم وانها تشبه الإنسان، خلقت من ذكر وأنثي، طويلة ومستقيمة القد وجمارها علي رأسها، كعقل الإنسان فى رأسه، ان أصابه سوء هلكت.

كان أبى يوصى أخوى بالنخل كما كانت أمى توصينى كل فجر وهى تلقى تعليماتها اليومية بكنس الدار واطعام الدجاج أن أسقى النعناعة، عندما كنت أنسي ـ كنت دائما فى عجلة من أمرى أؤدى تلك الواجبات قبل الذهاب إلي المدرسة ـ كانت تغضب ويعلو صوتها موبخة : «حرام عليك يا بنيتى، هذا فأل سيئ، ربنا يمد فى عمر ابيك ويبقى الدار عمارا» ولكن الله لم يمد ، لا فى عمره ولا عمرها. حتي اخواى ذهبا فأصبحت أنا ـ بعد ان اقمت فى القاهرة ـ كالمقطوعة من شجرة وبدا أننى نسيت النعناعة والصبارة والنخلة، وكل شىء.

ثم جاءت عمتى فاطمة لزيارتى وضمتنى الي صدرها وبكت علي خراب بيتنا الذى انطفأت ناره وجفت صبارته. ثم كفكفت دمعها وتربعت علي البساط الأسيوطى وفتحت السلة التى حملتها معها للزيارة. قالت «أحضرت لك رغفانا خبزتها وتمرا من نخلة ابيك وكسرت لك فرعا من الصبارة التى فى دارنا»، ومدت عمتى لى يدها بالصبارة وهى تقول والدموع مازالت فى عينيها: « الصبارة التى فى دارنا كسرتها لى أمى من صبارتها يوم تزوجت وانتقلت الي بيت زوجى، هذه اذن صبارة جدتك، وجدة جدتك، ربنا يبارك فيك يا فوزية يا بنيتى ويحفظ لك الدار عمارا».

ذكرتنى عمتى ولما تذكرت زرعت فقال الناس عنى مجنونة.

فى العمل أيضا يتهامسون وراء ظهرى. وفى مرة قالت لى زميلتى.

ـ انظرى يا فوزية الي يديك.

ففهمت أنها تشير الي الخطوط السوداء تحت الأظافر، قلت «هذه ليست وساخة، انه طين متخلف من الزرع الذى أزرعه».

قالت وهى تربت علي كتفى:

«لا يليق لا يليق أبدا وأنت موظفة!».

لا أفهم ما الذى يسىء زملائى عندما أزرع. المكان الذى نعمل فيه معتم وقديم تساقط طلاء جدرانه ونسج العنكبوت خيوطه فى الزوايا وعششت فيه الحشرات وأنا واثقة أن الفئران لها جحور فيه تتركها فى المساء والليل وتسرح بين المكاتب بلا ضابط وكل يوم أحمد الله انها لم تقرض بعد أيّا من أوراق الملفات التى فى عهدتى: الملفات الرمادية القديمة المصفوفة علي رفوف خشبية متآكلة يصعب معرفة لونها الأصلى. وحتي المساحة المستطيلة التى أمام المبني والتى نشير اليها «بالحديقة» يغطيها طفح المجارى فلا نستطيع دخول المبني أو الخروج منه الا بالسير الحذر علي خمسة احجار متجاورة تشكل جسرا الي عتبة الباب.

لم أقصر مع زملائى. عندما وجدت الوضع علي ماهو عليه زرعت ثلاث شجرات من الياسمين الهندى وتعهدتها فلما نمت وتكاثفت أوراقها حملتها الي المكتب ووضعتها متجاورة فى الشرفة الوحيدة التى بالمبني ولكن زملائى لم يلتفتوا لجمال الياسمين حتي عندما أزهر مع أنهم التفتوا للطين تحت أظافرى.

فى عملى لا يفهموننى وفى الحى أيضا. سمعتهم بأذنى يقولون فوزية المجنونة التى تلقى بنفسها علي نوي التمر كأنه جنيهات الذهب. وهم يستغربون سلوكى فالواحد منهم يأكل البلحة ويلفظ النواة، يبصقها من فمه فتسقط بعيدا أو يبصقها فى يده أو يرميها بعد ذلك

بطول ذراعه فتسقط أبعد . أركض لألتقطها وأخبئها فى جيبى العميق وعندما أرجع إلي البيت أضعها علي قطنة مبللة أربعة أو خمسة أيام، كل يوم أتعهدها وأتابعها وهى تنتفخ وتلين حتي ألمس بيدى طراوتها فأعرف أن الوقت قد حان . بعد ذلك أدفنها فى الطين وأغمرها بالماء ... وأنتظر.

كنت أتمني أن يكون بيتى فسيحا تحيط به أرض أزرعها ويحزننى أنه يتكون من حجرة واحدة وأن شرفته الوحيدة ضيقة الي هذا الحد ولا تتسع لكل ما أزرع. فى الماضى كنت أضع أصص الزرع علي سور الشرفة ولكنى عدلت عن ذلك لأن الصغار العابثين كانوا يرمونها بالحجارة. أول مرة وجدت أصية زرع محطمة والعود المزروع فيها مكسورا ذابل الأوراق فكرت فيهم ولكنى قلت لنفسى ان بعض الظن اثم فلما تكرر الأمر تأكدت، وتأكدت أكثر عندما أخذ الصغار يضايقوننى وأنا عائدة الي البيت أحمل صفيحة أو صفيحتين من تلك الصفائح الكبيرة التى تستخدم فى حفظ الجبن الأبيض أو الزيتون ـ كان عم متولى البقال يعطيها لى لكى أزرع فيها وعندما وجد اننى لا أشترى منه الصابون المعطر والجبن المستورد المغلف بأوراق فضية وذهبية غضب واستاء ولم يعد يعطينى الصفائح، ذلك رغم تأكيدى له اننى لا أشترى هذه الأشياء لا منه ولا من سواه لأنها غالية وراتبى قليل ـ عندما كان عم متولى يعطينى الصفائح كان الأولاد يمشون ورائى ويزفوننى ويقولون :

المجنونة راجعة وماسكة فى ايدها صفيح.

عقل ما فيش، مخ ما فيش.

مخ فالصو وعقل صفيح.

كان سلوكهم يحزننى فأشعر بغصة فى حلقى ورغبة فى البكاء إلا اننى لم أكن أبكى بل أنحنى ألتقط أول حجر فى الطريق وألقيه عليهم وأنا أسبهم.

وفى مرة من هذه المرات ظهرت لى أم سليمان المرأة البدينة ذات السن الذهبية واعترضت طريقى وهى تضع يديها علي ردفيها الكبيرين. قلت لها معتذرة:

ـ أنا آسفة يا ست أم سليمان، لم أقصد الإساءة لكن سليمان والأولاد الآخرين سبونى. وأيضا يا ست أم سليمان بالأمس كسروا آنية الزرع التى وضعتها عند مدخل البيت.

فاجأتنى ضحكتها ولكنى واصلت:

ـ انت أم سليمان، تقومين برعاية سليمان وحمايته أليس كذلك؟! اعتبرينى أنا أيضا أما، أنا أم الزرع!

لعَّبت أم سليمان حاجبيها وأخرجت صوتا متحشرجا من حلقها رافقته حركة بذيئة بإصبعها الوسطي وقالت:

– مبروك عليك «زرع» يا «أم زرع» تعيشى وتجيبى!

وأدارت ظهرها وتركتنى وهى تواصل ضحكاتها العالية المخيفة.

ولم أجد من أشكو له سوي أبويا محمد الذى يعمل أجيرا فى المشتل ويسكن فى كوخ خشبى فى نفس مكان عمله. فى بداية تعارفنا كنت أناديه «عم محمد» وهو ينادينى «الست فوزية» ولما تآلفنا صرت أسميه «أبويا محمد» وهو يسمينى «أم أحمد» نسبة الي ابى رحمه الله الذى كان اسمه أحمد. عندما تضيق بى الدنيا أذهب إليه وأشكو وهذه المرة شكوت له أم سليمان فنصحنى أن أسبها كما سبتنى. قلت له

سأحاول وعدت إلي بيتى ولكنى لم أكن واثقة اننى سأستطيع لأن هذه المرأة كانت تخيفنى الي حد أننى أراها فى أحلامى تضحك فتبدو أسنانها طويلة ومخيفة وعلي الأخص تلك السن الذهبية اللامعة، أراها تضحك فيكون الحلم كابوسا.

ومع ذلك فليست كل أحلامى كوابيس، عندما أصفو أري فى الأحلام الحقول فتكون الأحلام جميلة كالحقول ... وملونة.

عندما يكون الحقل قمحا أراه كالذهب الخالص تميل به السنابل وتنحنى وتموج فى بحر من زعفران.

وعندما يكون الحقل ذرة أري الكيزان وقد استوت علي عيدانها وسرت فى شواشيها حمرة خمرية فيبدو الحقل وهو الأخضر بنيا أحمر كماء النيل فى الشهر التاسع مثقلا بالطمى قبل الفيضان.

وعندما يكون الحقل حديقة برتقال أري الشجرات صغيرة ومدورة محملة بالثمار كنساء قريتنا ويكون البرتقال علي أخضر الغصون برتقاليا والشمس كمثله فى الزرقاء العالية.

وعندما يكون الزرع كامنا أري طين الأرض بين الندىّ واليابس يمتد حرا وأسود يتواري الحب فيه إلا قليلا انشق عن فستقه وأخرج شطأه، أخضر.

مرة واحدة رأيت النخل غابة فى السحر، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد ولكنها كانت علي وشك، فتخضب الأفق البنفسجى بلون الحناء. رأيت النخل مستقيم القد شاهق الطول وعميما ورأيت وجوه أهلى فيه، أبى وأمى وعمتى وابن عمى. كانت وجوههم خضراء شاحبة بلون السعف ولكنى لم أتحقق ان يكونوا يقفون خلف الجذوع أم كانت الجذوع خلفهم. وسمعت صوتا رخيما ودافئا كأنه صوت قارئ يتلو

ناديا خوست

الانفجار

هل تردد، هى أيضا: يهرب النهار قبل أن أنجز ما أريده؟ ويكون العمر هو تلك الأجزاء الصغيرة كالفسيفساء تضع احداها الي جانب الأخري مسرعة فى نهاية كل يوم، ويضيع بعضها أو يتكسر بعضها الآخر؟

فى الطريق الي المدرسة، كانت وهى صبية، تلف كتبها بمحفظة خفيفة، وتحمل دواة حاضرة للرمى علي من يغازلها. الحب؟ أكثر سعة من ذلك الغزل المسرع! والحب لا يأتى هكذا! كيف يأتى؟ لا تعرف بعد ! لكنه سيجد أجنحته ويصل ذات يوم مستقلا وحرّا ! تقول لها أمها: احملى القهوة وادخلى ! فتجيب: ليتفرج علىّ أهل رجل لا أعرفه، ولم أوافق بعد عليه؟ ترد أمها: لن يأكلوا منك قطعة! وهل عندك سبل أخري الي الزواج؟ بماذا تجيب؟ تقول: الدراسة الآن تشغلنى! عندك مانع يا أمى؟ من يستطيع أن ينكر ذلك السبب الوجيه! ليس أهلها، وليس زمنها من يزوج البنات صغيرات ويخرجهن من المدارس! لا تزال فى الذاكرة كلمات قاسم أمين!

فى الطريق الي المدرسة، كانت تمشى خفيفة، سريعة، هاوية. تنتبه الي اشجار الزنزلخت المزهرة، تمر تحتها، تمتص عبقها، تشرب لونها الناعم البنفسجى. سعيدة؟ نعم، سعيدة! امس نزل المطر غزيرا، مجنونا، بلل ثيابها، وصل الي قميصها، عبرت بحيراته وجداوله. آه،

بلل حذاءها الوحيد! غسلت جواربها، وجففتها علي المدفأة. مررت شريط رأسها علي بورى المدفأة فكوته. ولكن كيف يجف حذاؤها قبل الصباح؟ هل كان يجب أن تبكى يومذاك؟ لا دمعة ! كأن الحياة وعدتها بأنها ستكون كما أصبحت فيما بعد.

أتي الصباح مشرقا، وعبق الزهر والعشب الجديد فوق أكوام تراب منسية فى الطرقات. لا يزال لونه حتي اليوم نضرا فى ذاكرتها. فتح طريقا واسعا فوق الحديقة التى كانت تجمع صقيع الصباح الأبيض هناك، وتغير المنظر كله، لكنها ثبتته بألوانه وخطوطه نفسها فى ذاكرتها وقالت، عندى لن يموت!

أين ذلك البستانى، وبيته الطين، وبقوله، اشتال البندورة والفليفلة والباذنجان التى كان يزرعها فى بستانه علي حافة طريق المدرسة؟ كانت تتفرج وهى تعبره علي حبات الباذنجان اللماعة بين الأوراق، وتشم عبق ورق البندورة، وتلمح الساقية وعلي كتفها شجرة الجوز الكبيرة. وكانت الرطوبة تهب عليها من هناك. كأنها مشت فى الحياة كما مشت يومذاك فى طريق المدرسة، مستقيمة، تنظر الي الأفق. يقول من يراها ثابتة، مثابرة، انها تذهب اليه وقريبا، قريبا تصل !

فى طريق المدرسة تعترض احدي رفيقاتها علي مشيتها : تسرعين ! ولِمَ العجلة ؟ سنصل الي البيت، وسنكتب الوظائف الثقيلة! حقا لِمَ العَجلة! فى طريق المدرسة فتيان يحلمون بفتيات، ورجال يبحثون عن زوجة مناسبة، ومغامرون يبحثون عن صيد. والفتيات يمشين فى هدوء، ويستمتعن بذلك وهن يظهرن انهن لا يلاحظنه، ويحلمن بحب عظيم أو زواج سعيد، وربما بمغامرة صغيرة يتفرجن فيها علي لوعة المحب. حقا، لِمَ السرعة؟

تنظر هى الي البساتين الباقية علي طرف الطريق، وتجمع البرودة

التى هبت من المزروعات هناك. ستحب مثلهن ذات يوم. لكن ذلك الحب سيكون واسعا، اخضر مثل البساتين، يرافقها مثل هذا الطريق الي الأفق. كيف سيأتى؟ من سيسعي اليه؟ لا تعرف بعد، لكنها مؤمنة بأنه سيكون فى وقته لا قبل ذلك ولا بعد. سيأتى كما يأتى زمن المشمش، وستنتبه اليه من بدايته حتي نهايته. لا، ماذا تقول؟ لن ينتهى ابدا!

مشي مرة الي جانبها فى ذلك الطريق نفسه، الشاب الذى تعرفت اليه فى الملعب. يبدو أنه أحبها. عبر عن ألمه لأنها تمشى دون أن تنظر اليه. يريد أن يكون هو مكان الأفق الذى يواجهها وهى تسير؟ لا ! قالت له الوداع. وعبرت الطريق الي المدرسة. وخلف المدرسة رأت الأفق.

كيف تخلصت من دروس العروض؟ أف! لم تحبها ابدا. جثمت علي السنة كلها! سألت المعلمة: هل كان الشعراءً العرب يعرفونه؟ يا للسؤال السخيف! بالسليقة أنشدوا الشعر. لم يعرفوا النحو. ندرسكم ذلك لأنكم دون سليقة!

ماذا تقول هى اليوم فى طلابها وطالباتها الذين لا يكتبون بلغة سليمة؟ تقول لهم: تخطئون فى اللغة. فيجيبون: لكن معادلاتنا صحيحة. ما شأن العلوم باللغة! هل تلومهم أكثر مما تلوم بنتها التى كتبت لها مرة رسالة ركيكة؟ صغيرة؟ ليس ذلك عذرا ! ياربى، ما العمل؟ تناولت حملا اضافيا، تناقضا جديدا بينها وبين الجيل الجديد الذى لا يتذوق لغته لأنه لا يعرفها ولايريد أن يعرفها.

هل قفز العمر بمثل تلك السرعة من الطريق المحفوف بالبساتين الذى مشت فيه الي المدرسة، الي هذا الطريق الذى تحف به البنايات وتقود فيه سيارتها الآن الي الجامعة وهى تلبس طقما متوهجا، مرتبة الشعر، جميلة؟ كانت يومذاك تلبس ملابس المدرسة، وجوارب قصيرة.

نادتها المديرة: جوارب قصيرة؟ فى مدرستى لا أقبلها! «مدرستها؟». ولكن من يجسر أن يقول للمديرة هذه ليست مدرستك بل مدرستنا؟!

لا تذكر اليوم كيف وجدت تلك الجوارب الطويلة ووضعتها فى محفظتها، وصارت تلبسها عند باب المدرسة. تقول لها رفيقتها: عناد! لا يستحق الأمر هذا العناء! ترد: بل طريقة فى الحياة، الدفاع عن الرأى يستحق العناء. لتكن للمديرة فقط باحة «مدرستها» حيث اضطر الي المرور امامها!

فيما بعد عرفت أن تلك المديرة خرجت فى أول مظاهرة نسائية نزعت الحجاب علنا فى ساحة المدينة وتحدت ماء الفضة. تساءلت يوم عرفت ذلك: كيف اصبحت تلك الشابة الجميلة فى الصورة بشعة وقاسية كما تبدو الآن وهى مديرة؟! فهل تستطيع أن تتساءل اليوم التساؤل نفسه وهى تري الناس رجالا ونساء ينقلبون امامها من الجمال الي البشاعة؟ كان يخيل اليها أن الانهيار قرار صعب أو قدر مستحيل. لكنها فى هذه الأيام استنتجت حقيقة جديدة: أن الانهيار اغراء سهل، لا هزيمة فقط، وأن الإنسان يجب أن يدافع حتي عن ظهره المستقيم. ودافعت عنه! ظلت تحضر دروسها فى عناية، ظلت تصحح أوراق طلابها فى انتباه، ظل تَراجُع المستوي العلمى يقلقها، ظلت تناقش فى حرارة المشاكل التى نوقشت مرات. وبقيت تهوي الزهر الذى يعبق فى الصباح، وتلبس ألوانا مفرحة، وتوزع نباتاتها فى الشرفة الصغيرة، وتزين جدرانها بصور لوحات، وتخيط للستائر حافة من الدانتيل. ظلت تحب البسط الملونة، وشغل الابرة، واطارات الصور القديمة.

«هل امسك بكل تلك الأشياء، وأمسك حتي بأصوات العصافير فى ساعة معينة من المساء والصباح، كى أثبت فى الريح التى حملت

اصحابى بعيدا عن المكان الذى التقيت بهم فيه؟». غيَّر جيرانها واصحابها ملابسهم. من كانت تصافحه أمس يسحب يده اليوم كيلا تلمسه. يخشي الدنس! هى دنس؟! من كانت تزوره لا يرحب بها اليوم. حاول هدايتها، وعندما نظرت اليه دهشة، ابتعد. عمل واجبه، يئس وانصرف! عمل واجبه فى هدايتها، هى التى ابتعدت عن مدينتها وأهلها لتدرس، «اطلبوا العلم ولو فى الصين»، ومشت هناك ايضا ثابتة الخطوة فى الريح والثلج، وعبرت الممر بين عصر وعصر، وانتزعت شهادة بالذكاء والتفوق لعالم أتت منه، هى تحتاج ان تهديها امرأة جاهلة؟ اين بقى طريقها الذى تمشى فيه مثابرة مسرعة؟ من جانب سراويل ضيقة، ومن جانب آخر ثياب قاتمة حتي الأرض وبراقع قاتمة. حروب وجرائم. انقلابات وتوبة. ماضٍ يحترق وحاضر يرتجف. كأن ريحا عاتية جرَّت الناس الي الندم علي حَياتهم الماضية كلها، فنفضوها كما ينفض الغبار عن السجاد. لم يتركوا ثنية يخبئون فيها نزهة أو حبا أو ذكري. كأن تلك الأفراح كانت اثما.

عادت هى الي طريق المدرسة، ومشته كله. خلعت مرة أخري جواربها الطويلة عند باب المدرسة، ولبست القصيرة وهى تخرج من المدرسة. حمَّت رأيها! جففت مرة أخري حذاءها الوحيد المبتل. ماذا تفعلن فى الصيف يا بنات؟ لنتبادل الكتب! هكذا بدأ النادى الذى جمع بنات صفها. لنذهب ماشيات الي الضواحى! لنتعلم كرة السلة! لنتعلم الرسم! لنتفرج علي دَرْس القمح! الدراجة؟ السباحة؟ كيف؟ اين؟ بكم؟ أنا التى كنت أسرع فى طريق المدرسة، أم السريعة تلك السنوات السعيدة! متي المسابقة يا بنات وماهى الأسئلة المتوقعة؟ حضروا القهوة كى نستطيع السهر حتي الفجر! لكن هل سننجح؟ تضحك: اذا الشعب أراد الحياة ... قصيدة الشابى التى تعلمناها. نسيناها؟

ثم نادتها رفيقاتها: هنا اسمك علي لوحة الاعلانات! الاختصاص؟

اذن كان بينها وبين الحياة حقا وعد! اتفقتا معا! بقى الحب؟ فيما بعد سيأتى. هل سيأتى بنفسه ؟ ابحثى انت ايضا عنه! بين طيات الدراسة وجدته. ناعما، رقيقا، دون مواكب، ودون قصائد شعر، دون سهر تحت نافذة المحبوبة، أو ملاحقتها فى الطريق. ولم يكن فيه رسل أو بحث عن الخواتم والأساور. استعارت من صديقتها وردا ابيض للرأس، وكان عندها صدفة ثوب ابيض. وأى عرس جميل! تجولت فى المدينة، فى الليل كله يومذاك!

قالت لطلابها مرة : كان جيلنا محظوظا! وتذكرت كيف وجدا بيتا وكيف حملا اليه طاولة الطعام مع اصدقائهما فى الطريق! نعم، فى الطريق! وحمل بعضنا الكراسى. كيف مشينا؟ لمَ الخجل؟ كان الطريق لنا، لا زحمة فيه. وتذكرت كيف ناما فى البدايةَ علي فراش علي الأرض فى بيت واسع أغلقا غرفه الفارغة كلها. وهناك استقبلا اصدقاءهما. تذكرت انها نامت علي ذراعه سنوات. تذكرت أن المدينة كانت صغيرة، وجميلة، وخضراء، والأرصفة تسع الناس. قال لها طالب: جيلكم حمل لنا هذه الأيام! حشدتم فى أيامكم ما سميتموه نهضة وتحررا وحصدتم اقصي الوهم والعنف! ارتعشت. هل تلومه؟ شاب، والأفق فى الطريق الي الجامعة تحجبه بنايات مرتفعة. أشفقتْ عليه. أيمكن ألا تملك الا الشفقة عليه؟ وهل تستطيع أن تنجد حتي بنتها؟ فى برهة شعرت بأن الريح عصفت وحركتها من مكانها الذى ثبتت فيه حتي اليوم علي طريق المدرسة وطرقات الغربة، وطريق العمل، وثبتت فيه حتي بين حرائق الحرب المجاورة. هل أراد الشاب أن يقول لها انْهَار كلامكم، انتهي زمنكم! فى برهة شعرت بأنها تهرب راجعة لتحتمى ببيتها.

قالت لها زميلتها: المرأة التى تشتغل زادت همومها بيدها. أضفنا الي همّ البيت العمل خارجه! كلّت يدى من تصحيح أوراق الامتحانات.

ولا شىء يستحق التصحيح! هل كنا علي حق يوم اخترنا العلم والشغل؟ وكيف توهمنا أننا أنداد لزملائنا وحالنا هكذا؟ هل تندم هى أيضا علي ما اختارته وتخبئ فى صندوق مظلم سرى الأمس الذى عاشته؟ سألت زميلتها: كنت اذن عند الحلاق! كيف عرفت؟ عرفتُ أيضا انك صادفت عنده نساء يرَتبن شعرهن خلف الستارة، لأنَهن ذاهبات الي حفلة. وفكرت أننا لا نستمتع بمثل تلك الحفلات ولا وقت لها لدينا؟ ورأيتِ هناك أيضا بناتا دون السادسة عشرة يرتبن ويصبغن لحفلة العرس، والعريس فى الخمسين من العمر! كيف عرفتِ؟ كيف؟

فى ذلك الصباح كانت قد رتبت هى الفطور، وغسلت هى الفناجين والصحون بعد الطعام، وخرجت مسرعة من البيت. لن تصل الا فى موعد المحاضرة لا قبله. منذ زمن طويل لم تعد تنام علي زند المحب. ولم تعد عيناه معبأتين بالشوق. تخشي أن تعترف. هو ايضا كالمهزومين، انطفأت فيه النضارة. سيبقي ذلك السر بينها وبين الليل، حتي تخضر الدالية فى الربيع. بنتها ايضا تعود الي البيت مطفأة العينين. قالت لها: انت التى تتعلمين وتقرئين، تسبّعين يديك بالتراب، وتخافين أن تعلقى من شعرك فى جهنم! ردت: ذلك أفضل من لبس البنطال أو التنورة القصيرة وقلة الدين.

تذكرت مديرتها القديمة. «فى بيتى نفسه!» اسرعت فى الطريق الي المحاضرة. كانت تلبس طقما متوهجا، وكان شعرها مرتبا، وكان وجهها جميلا، وما يزال قوامها رشيقا. كانت يداها ثابتتين علي عجلة القيادة، ثبات خطوتها فى الطريق الي المدرسة. وما تزال تحب النظر الي الأفق. تساءلت: هل أردد أنا أيضا أنى عشت علي غير ما أتمني؟ وأن النهار ينتهى قبل أن ينجز ما قدرته له؟ ردت فى هدوء علي نفسها: أنا، لا!

مع أن الريح حملت الغبار والأكياس الوسخة الي بيتها أمس،

فاضطرت الي تنظيفه، ورغم انها ستحضر فى الليل طعام الغد، ورغم أن دعوة أهل زوجها الي الغداء ستكلفها نهارا شاقا، شعرت بنسيم الصباح المنعش، وبالرغبة فى الحياة. وتمنت أن تعود صبية الي طريق المدرسة، تحمل دواة الحبر، وتمشى مسرعة، مسرعة، وتتلقي نسيم البساتين علي طرف الطريق، وتلحق ألوان الغروب المبكر فى العودة.

عند الضوء الأحمر صادفت بستانيا يجر عربة خضار. التفتت اليه. نعم هو نفسه! هو ذلك البستانى الذى كان يزرع البندورة والباذنجان ويسقى البستان من الساقية وتهب من بستانه الرطوبة. نظر اليها. هل عرفها هو أيضا؟ مكان بستانه القديم بناية اليوم. فهل ظل ثابتا مثلها، فلحق بستانا آخر من البساتين التى تبتعد عن المدينة، وهناك زرع خضاره، وسقاه، وتقف هناك الآن ايضا شجرة جوز كبيرة علي كتف الساقية؟ لابد أنه عرفها!

كانت تنظر اليه. وفى تلك اللحظة حدث الانفجار. فى لمحة خاطفة كالبرق شعرت بأنها كانت تتوقع ذلك. بل كأنها رأته من قبل. لكنها لم تعرف هل كان الانفجار لغما وضع فى سيارة فجرت من بعد، أم كان قصفا من بوارج غريبة، أم كان قنابل رمتها الطائرات. فى لمحة كالبرق لم تعد موجودة، فلم تكمل تساؤلها: هل كان موتها نهاية جيل أم نهايتها هى، أم نهاية زمن واحد فقط هو زمنها؟ فعند ذلك الضوء الأحمر تجمعت فى باقة أجزاء حياتها كلها، المدرسة، زميلاتها، الطرقات، البساتين، وحتي حذاؤها الوحيد المبتل ومدفأتها نفسها، سريرها، نباتاتها، طقمها المتوهج، ملامح صاحباتها، تجمعت فى باقة واحدة ثم تناثرت شظايا.

اعتدال عثمان

السلطانة

العمة سلطانة أغرب امرأة فى العالم.

فى الصباح إنسية، وفى الليل كأنها من بنات الجان. تسكن طرف البلدة ناحية الغيطان. تحلب مع شقشقة الفجر وتطبخ بقية النهار. فى المواسم تعجن ويخرج الخبز المرحرح من طاقة فرنها كالفطير، يفوح بالحلبة ورائحة أنفاسها العنبر.

تداوى العليل ببلسم الكلام الحلو والوصفات البلدية وكاسات الهواء وأدوية تأتى بها من البندر، من البيت الكبير؛ قطرة زنك، باردة وحامية، قطن وشاش وسائل أحمر كالدماء، فى زجاجة محكمة، تطيب الجراح بلمسة يدها، قبل أن تضع عليها بودرة ضامة للجروح، تقول اسمها سلفة، لأنها تستلف الشفاء من المرض ولا ترده.

فى العصارى تتحمم العمة سلطانة وتتكحل وتتطيب. تنتقى من خضار الزرع لون ثوبها البيتى، يلتئم حول الرقبة ويحيط الصدر العالى بقطر دائرة هائلة، تتضامّ من أعلي بنمنمات الكشاكش، لتنفرج طيّات القماش، أسفل السفرة، فى اتساع رخىّ، يطول الأرض ويصدر مع كل حركة لها حفيفا صاخبا، كاصطفاق أوراق الشجر بأنسام عفيّة. تعقص علي رأسها قمطة يشهق من بياضها لوز القطن المفتح. تتلفع عليها بالسنابل. ومن تحت شال الذهب ينسدل ليل شعرها الموج

اللماع.

وأنا فى ذيلها علي الدوام. تكاد تتعثر بى فى الغدو والرواح، بين قاعة الفرن والزريبة والحمام. تنهرنى كل حين:

ـ يوهوه يا بنت الناس ... ما تقعدى يا حبيبتى فى حتة واحدة..

خلينى أشوف شغلى .. وبعدين نبقي نحكى .. أحكى لك بالليل زى ما انت عايزه.

أنظر إليها بخاطر كسير، كأن روحى قد علقت بشفتيها، وبنظرة وعد حنونة فى عينيها السمحتين. أطرق برأسى وأنا أتزرزر بالبكاء.

ـ طيب بس خلاص.

فى الحال تنقشع عن سماء روحى غمامة الدمع الطفلة. وأسمع كركرة الضحك الصافى فى قلبى.

ـ أحكى لك عن الملك والغراب ... وأنت تاخذى سواده في شعرك ... ولا أحكى لك عن حبة الرمان بنت ملك الجان وتبقي حمرتها فى خدودك ... ولا عن خاتم سليمان وأنت تعرفى لغة الطيور .. ولا ..

أقاطعها متعجلة :

ـ خاتم سليمان.

ـ طيب كل شىء بميعاد.

تنسي هى وتنهمك فى أشغالها البيتية التى لا تنتهى. وأظل أنا مربوطة بذيلها، حائرة بين كرات الزبد الهائلة السائحة فى بدنها

الفخم، ينز بعرق سمنى. يجعلنى أتذوق، كلما قبلت وجنتيها، طعم المرتة المملحة، أحبها أكثر من القشدة بالعسل النحل.

عينى لا تفارق حركتها النشطة. لا تكل طوال النهار، وكأنها لا تحس لبدنها ثقلا. تطوى الأرض جيئة وذهابا وكأنما تمشى علي ماء أو هواء. لا يتعب موج البحر فى حركتها الدائبة، ولا ينفد تجدد الهواء.

وكلما جلست لتعد شأنا لها، تحينت أنا الفرصة لأرمى بنفسى فى حجرها البراح. أحس أننى أغوص فى شلتة محشوة بزغب الوز مع ريش النعام. ويهيأ لى أحيانا أننى أغطس فى ماعون عجين خمران. تأخذنى فى حضنها الرجراج وأنا أدفس رأسى بين ثدييها، فأجدها تدلف إلي أخدود عميق. وأقول فى كل مرة:

ـ عمة سلطانة .. ريحك حلو .. ريحك ريح ستات.

تضمنى إليها وهى بين الرضا والغضب. ثم تطلقنى فأري صدرها العمران يهتز بضحكة عالية، موصولة بذيل رنان:

ـ يا اخواتى .. شوفوا البنت .. لا طلعت ولا نزلت وبتقول إيه.

العمة سلطانة لا عمر لها، ولا حساب عندها للزمان. وإنما طلعنا نحن لنجدها عمة لنا جميعا، وهكذا كانت لصبيان من قبلنا وبنات. لا تتبدل، ولا تتغير، ولا تخلف عادة لها. ولا تنفد حكاياتها فى كل مساء.

وحتي بعد أن كبرنا ودخلنا مدارس البلدة، ومن بعدها مدارس البندر، ثم التحقنا بالجامعة فى القاهرة، كنا نعود فى الإجازات، فنجدها علي حالها. يأتى إليها صغار غيرنا، تمد لهم مائدة الطعام قبل أن تفرش شعورها الطوال حكايا للسهر والونس الحميم « دول أحبابى ... أولادى»، تماما كما كانت تقول لنا. وأنا أترك أمى وأبى

وإخوتى وأئيب إلي حضنها الفواح.

تقول لى فى كل مرة عين الكلام، كأننى ما غادرت حجرها إلا للحظات، وما أزال متعثرة فى ثوب الغيطان علي بدنها وفى أهداب سنابل شالها، معلقة روحى بلحظة صفوها، حين تنطق كلمة السر فتنفتح لى مغاور الكلام.

العمة سلطانة مقطوعة من شجرة. لا زوج ولا ولد. ولا يعرف أحد نسبا صريحا لها. لم يكن هناك غير صورة مؤطرة ببرواز مذهب كالح اللون، معلقة علي جدار المندرة. والصورة لشيخ مسن، بهتت ملامحه من كثرة ما حدقنا وما طرحنا عليها السؤال بغير جواب.

يقول ناس البلدة: إنه من محارمها وقد أتي بها من البندر فارا من أهله، أو من ثأر قديم، وهى فلقة قمر فى بواكير الصبا.

يقول آخرون: إنه زوجها وكان فى عمر أبيها، وإنه لم يقربها، وإنما كان يجالسها ويقص عليها أخبار السلف والخلف، ويعلمها فنون الشعر والأدب، وإنها تحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر العويص المجهول، وتعرف سيرة أبى زيد الهلالى وذات الهمة وعنترة وحمزة العرب.

ومن قال: الرجل من صلب أحد أكابر البلد، ممن شاركوا فى هوجة عرابى، وإنه بعد موت والده اختفي فى الريف، هربا من ملاحقة الخديوى والإنجليز.

ومن زاد فقال: هو ابن الأمير آلاى محمد عبيد، بطل واقعة قصر النيل وقائد الآلاى السودانى، الذى استبسل واستشهد فى التل الكبير. ولما تقلبت النفوس علي العرابيين، عادت به أمه إلي بيت العائلة فى البندر، إلا أنه اختلف فى كهولته مع أولاد أخواله علي الميراث، فنزح

إلي البلدة ومعه سلطانة، ابنته أو ربيبته، لتقوم علي شؤونه.

وذهب عدد آخر من العارفين ببواطن الأمور إلي أن الرجل كان زميلا لسعد باشا زغلول فى مدرسة الحقانية، وكان من خلصائه المقربين لسنوات عدة، لكن حدثت بينهما جفوة حين تجاهل سعد باشا الاتصال بمحمد فريد أثناء وجود الوفد المصرى بباريس فى منتصف عام 1919، وأن الرجل كان أول المسهمين فى نقل جثمان محمد فريد إلي أرض الوطن.

بل ان هناك من يؤكد أن الرجل الذى هبط علي البلدة وسأل عن مجلس الشيخ، قبل وفاته ببضعة شهور، وحسبه الناس جاء خطيبا لسلطانة، ليس سوي جمال عبد الناصر، وأن الشيخ قام وقبله بين كتفيه، وكان ذلك قبل قيام الثورة، فلم يعرفه أحد.

لم نكن نعرف الحقيقة. وفى مرات نادرة، يبادرها أحدنا بالأسئلة المحومة فى رؤوسنا كزنابير هوجاء، أطلقها من عشها عبث الأولاد، ونحن نتحلق من حولها فوق حشيات الأرائك البلدية، تأكل أفواهنا من طبيخ صباحها الشهى، المتبل ببهارات الأنفاس الحارة، وفى غمرة الونس وحرارة تلاصق الأجساد، تتفتح منا مجاهيل لا نعرفها، فينطلق الولد أو تنطلق البنت:

ـ عمة سلطانة .. احكى لنا حكاية الصورة.

تباغتها الكلمات، فتغيم عيونها لحظة، ولا تقول سوي:

ـ هو .. رحمة ونور.

تقولها وكأن الكلمات كفوف حانية تربت علي الوجه الكهل، أو تمسد الشيبة الكتانية المشعثة، أو كأنها شفاه تمس الجبين المغضن

مسّا رفيقا. يتغير صوتها ثم يعود إلي نبرته المعهودة، كمن انتهت توّا من نفض ذرات غبار منسية، تراكمت منذ زمن علي شىء عزيز، وتحب أن تترك ما بقى منها هاجعا، تحت الجلد أو فى تلافيف شغاف القلب، بعيدا عن العيون.

وبحركة حاسمة من يدها يسود الصمت، بعد أن أثار الجواب المبتور همهمات فضولنا النهم.

ـ فضونا من السيرة دى .. أقول لكم حكاية، وإن وجدتوها حلوة، تقولوا لى غنوة، وإن كانت ملتوتة ...

نصيح بصوت واحد:

ـ تقولى كمان حدوتة.

ـ تعرفوا يا أولاد كل شىء فى الدنيا وله فى الأصل حكاية.

نقول وقد سري إلينا مس كالكهرباء، لا ينقطع إلا فى نهاية المساء:

ـ ازاى يا عمة؟

ـ يعنى الحلم له حكاية والكلام له حكاية.

يقول الولد:

ـ نسمع حكاية الحلم.

تقول البنت:

لأ .. نسمع حكاية الكلام.

تقول العمة سلطانة:

ـ طيب من غير خناق .. أحكى الاثنين.

فى سالف العصر والأوان كان فيه مدينة بيوتها من رخام أبيض، مصفحة بصفائح الذهب والفضة، وفى دوائر الجدران ألف شباك من خشب الصندل وألف شباك من النحاس الأحمر الوهاج، خارجة كلها علي أبواب الأبنوس. وكان لا يدخل من هذه الأبواب إلا الأمراء والحراس.

وكانت المدينة تطل علي بحر فيه أسماك علي كل لون. والأسماك لها أجنحة تطير بها إلي السماء، فتحرق الشمس أجنحتها، فتقع علي السحاب، فيرمى بها السحاب إلي البحر، فتنمو لها أجنحة من جديد.

وكان فى هذه المدينة امرأة فقيرة، أخذ الحاكم شاتها الوحيدة وكانت تشرب من لبنها وتغزل صوفها وتأكل من ولدها. ولما ذهبت المرأة إلي قصر الملك لينصفها من ظلم الحاكم، منعها الحراس من الدخول. جلست المرأة تبكى علي أعتاب القصر، فخرج من دمعها الترمس والفول. تختاروا الترمس ولا الفول ...

ـ الترمس ياعمة، مملح زى الدموع ... وبعدين ..

ـ تدحرجت حبة ترمس إلي البحر، فبلعتها سمكة وصعدت بها إلي الشمس فمسها الشعاع، واحترقت أجنحتها وحبة الترمس ما تزال فى بطنها. ولما ألقاها السحاب إلي البحر انزلقت من فمها الحبة وقد حولها الشعاع إلي جوهرة. والجوهرة صارت معلقة فى شجرة، والشجرة فى بستان، موصول بالسماء. وكانت للجوهرة قوة كقوة الحديد ولونها كلون النار، تتقد آنا بالياقوت، وآنا بالدر، وفيها روح

الزمرد.

ـ يا عمة قولى كلام سهل.

ـ بس اسمعوا وانتوا فى الآخر تفهموا .. أصبحت حكاية جوهرة علي كل لسان.

قال الناس: جوهرة كنز عليه رصد.

قالوا: جوهرة فى الأصل كانت دمعة امرأة مظلومة، من مد إليها يدا وكان ظالما، فرت منه.

قالوا: إذا كان صادقا وصل، وأمسكها.

قالوا: من يمسكها يصبح ملكا علي الملوك.

لما شاع الخبر ودخل فى القلوب الطمع، توافد الأغراب علي البلد ومرادهم امتلاك الكنز المسحور.

وفى يوم من ذات الأيام ظهرت جوهرة لفتي من أهل البلد وبانت له علي صورة صبية، بهية الحسن، تغتسل فى بحيرة بستان، فلما نفضت القميص لصب ماء، نظر إليها فورد وجهها فرط الحياء. ولما رأت عين الرقيب علي تدانٍ، أسبلت ظلام شعرها علي الضياء. وظل الماء يقطر فوق ماء، فوقع حبها فى نفسه، وأمسكها ولم يرخها حتي دخل بها بيت قلبه.

ـ الله ياعمة .. كلامك حلو وحياة النبى .. بس صعب كأنه شعر ..

ـ فرح الناس بالفتي حين ارتضته جوهرة زوجا لها، وأقاموا الزينات ولياالى الأفراح، ورصدوا له سعد الطالع، فوجدوا نجمه فى صعود إلي

منزلة ملك الملوك.

تحكى العمة سلطانة وكأنما تلبستها روح من الجان، تتبدل هيئتها وتتحول. تمد يدها فوق رؤوسنا إلي مكان غائر فى الجدار. وحين تعود إلي دائرة النور، نري جوهرة فى ليلة عرسها، علي رأسها الطرحة التلى المقصبة، تتبختر فى حرير موشَي بنجوم وأقمار، تبارك الخلاق. تمد اليد الأخري، فتأتى بالسيف والصولجان لسيد الملاح، يا صلاة الزين، حصوة فى عين .. تقطعها زغرودة طويلة وأهازيج. والعمة سلطانة جوقة ومعازيم وصبيان وبنات وعروسة وعريس وتختروان. وعيوننا مفتوحة علي اتساعها، تتسارع منا الأنفاس.

ـ حكم الملك بين الناس بالعدل. قال: كل من زرع حصد. وقام بطرد الأغراب، وأنشأ حول البلاد الأسوار. وعاش مع جوهرة فى أرغد عيش، لم يكدر صفوه غير انشغاله عنها بأمر عجب ...

ـ بالسحر يا عمة ..

ـ يمكن بالجن ..

ـ نقول انه فى كل يوم كان يعقد الديوان من الصبح إلي العشاء. ويأتى إليه الناس من كل صوب، فيقص الواحد منهم حلمه، من أول نومه، والملك ينصت إليه وينظر فى أمره، فإذا أعجبه الحلم، نال منه الحظوة وأصبح من أهل المشورة والكلمة المسموعة. وإذا أغضبه الكلام يبعث بالرجل إلي جبل قاف، حيث يسكن سارقو الأحلام. ويظل الرجل ممنوعا من النوم لشهور، أو لأعوام، فيجن ويهذى. عندئذ يدفع به إلي السياف، فينال جزاءه بقطع لسانه. ردعا لأمثاله. والناس ...

ـ خافوا من الكلام ..

- ومن الذهاب إلي الديوان ..

- واحد مرة حلم بجوهرة ..

- وواحد غيره حلم بالبستان ..

- وفى ليلة ثانية عشرة حلموا بالحلم إياه ..

- والملك ...

- الملك كان يعقد الديوان فلا يأتى إليه أحد.

- أمر الملك بإحضار مرآة كبيرة، تعكس أمامه ما يجرى فى القصر والمدينة. وكان يجلس أمامها يتحدث ويسمع ما لذّ له وطاب . حتي كان ذات يوم، وبينما كان ينظر فى المرآة فإذا به لا يري صورته. أمر الملك شهبندر التجار بجلب المرايا من البلاد جميعها. فلما نظر إليها وجدها علي شاكلة واحدة؛ تتآمر ضده وتحجب عنه رؤية نفسه وما يحدث حوله. غضب الملك وأصدر مرسوما بإلغاء المرايا.

ولما زاد به القلق بذيوع النبأ، أمر الحراس بالانتشار فى أنحاء البلاد ومراقبة الناس فى الصحو والمنام، وأصبح همه سماع النميمة ومعرفة دخائل السريرة. ونصحه أهل المشورة بتشديد الرقابة وتخصيص حارس لكل رجل من العامة. وتطوع بعضهم ليكون رقيبا علي حلمه، فينم عن نفسه، إذا تبادرت إليه نأمة فى تهويمة أو فى منام، تزعزع استتباب الأمن، أو تهدد مصالح البلاد.

وفى الآخر بطل الكلام وكفت الناس عن الأحلام.

- مش معقول يا عمة .. لازم ..

- الناس تطق.

- تهج.

- يقتلوه.

- تحصل مصيبة.

- فى ذات صباح هرع أهل القصر فى هلع ليخبروا الملك بالنبأ، إذ اختفت جوهرة من كل مكان، وكأنها فص ملح وذاب. قال الملك: يمكن وقعت فى البحر أو خطفها النسر. وأمر بالغواصين أن يواصلوا البحث، من طلعة الصبح إلي غروب الشمس. وأمر بالبصاصين أن يعتلوا المآذن والقباب ليفتشوا الغمام، وأن يرصدوا طيور السماء من الفجر حتي حلول المساء.

وخرج الملك فى موكب عظيم ليرقب البحر والجو بنفسه، باحثا عن جوهرة، درة قلبه وتاج ملكه.

وبينما الموكب يسير، والملك فى همّ وغمّ مقيم، والناس تشهد فى صمت، إذا ببنت صغيرة تشير إلي الملك وتصيح بأعلي صوت «الراجل ده من غير خيال .. ما لوش ظل زى بقية الخلق».

وفى الحال سري اللغط بين القوم، لما انكشف الأمر وهجم العوامّ علي الحراس وصارت واقعة، مات فيها من مات، وسلم الملك وعدد قليل، عادوا جميعا ليدبروا معركة الغد.

وكان الملك قد هدّه الحزن والتعب وغلبه النعاس، وإذا به يدخل مملكة الأحلام ويسير فى أبهاء تفضى إلي أبهاء من بلّور، عليها بسط من سندس وديباج، ومن فوقها ثريات من ذهب مع جمان فى فضة.

والملك يتقدم شارد الفؤاد مأخوذ اللب، حتي وصل إلي قاعة العرش. وفى صدر القاعة وجد جوهرة تجلس بين يدى سلطان الأحلام، ومن حولها ناسه وأهل بلاده. فرح قلبه ومد إليها يده، فلم تمسك غير ظل أو خيال. فهَمَّ بالنداء. وإذا بالسلطان يشير إليه، فانعقد لسانه ومات علي شفتيه الكلام. وتوتة توتة فرغت الحدوتة.

– لا ... لا ... يا عمة لازم تكملى ...

وأقول أنا:

ـ وجوهرة يا عمة .. عملت إيه جوهرة؟

تقول:

ـ قولى أنت.

ـ ما أعرفش يا عمة.

ـ بكره تعرفى.

تقولها بغير نقض أو إبرام. وكأنها تغلق من خلفنا باب الحكاية وباب بيتها، فنعود إلي دورنا القريبة، ونسلم أنفسنا إلي النوم. وأري الملك يتجول حزينا فى أبهاء البلّور وجوهرة تبكى، فيطلع من دمعها الترمس والفول وأنا سمكة مجنحة أطير إلي الشمس فأشعر بسخونة لا أطيقها. أهوى وأهوى إلي بحر بغير قرار. ألمح أطيافا تتراءي وتختفى أميز من بينها أمى وإخوتى ووخزات كالإبر تندس فى جسمى كل حين وجرعات مرة يلفظها جوفى المحموم. همهمات وبكاء مكتوم ووجوه لا أعرفها تقلبنى علي قاع لا نهاية له، يشتعل بنيران بيضاء، لا تكف عن التهامى. أطرافى تنفصل عنى. تنزعها أيادٍ غريبة. أصرخ

بغير صوت. أفواه تنهش ساقا فساقا، إصبعا من وراء إصبع. رأسى معلق فى خزانة محكمة. أطرق بجبينى جدارا سميكا مصمتا. يلين الجدار ويشف كالبلّور. أري من خلاله وجه أمى مستسلما. يتكاثف الجدار. أغيب ويغيب عنى السمع والبصر، يغوصان فى قاع عميق. من بعيد يطفو صوت العمة سلطانة، يأتينى، لا أدرى من أين. تحكى عن غيبة الملك التى تطول وواحد من سكان القصر يصنع تمثالا من الشمع علي صورة جوهرة. من رآه ظنها هى.

أسمع ناسا تهلل وتكبر كأنه يوم عيد

تتلاشي الأصوات.

أنادى .. يا عمة ... يغوص منى النداء.

وأنا علي محفة محمولة فى موكب كبير. يتقدمه الملك. وإلي جواره التمثال. ونيران تشتعل من فوقى وتحتى، تطول موضع الملك، فأشعر بذوب الشمع يغمرنى، قطراته السائلة تلسع جبينى، وما تلبث أن تجف. أفتح عينى فأري أمى والعمة سلطانة، فى يدها منشفة كبيرة تجفف عرقا غزيرا، تفصد به جسمى كله.

أقول:

- عمة .. عمة .. أنا عرفت بقية الحكاية.

- قولى يا نور عينى.

- جوهرة قالت لى . إنما ده سر.

أسمع كركرة ضحكها من القلب، موصولا بذيل رنان، وهى تأخذنى إلي براح حضنها الفواح.

بعدها بسنوات كثيرة وكنت قد تخرجت فى الجامعة وعملت بالصحافة وأقمت مع أسرتى فى القاهرة وتباعدت زياراتى للبلدة حتي كادت تنقطع وتغيب عنى أخبار ناسها، كنت أجلس إلي مكتبى بالجريدة أكتب مقالا ساخنا عن الأوضاع، ومدير التحرير يقِف علي رأسى، متعجلا تسليم المادة إلي المطبعة والأفكار تتلاحق وتَتشكل أمامى علي الورق، كلمات وعبارات ضخمة، ذات طنين بغير صدَي، بدت كفقاقيع صابونية هائلة، من صنف ما يخرج من مداد الأقلام كل صباح وينفثئ علي أوراق الصحف، وكنت علي وشك الانتهاء وإذا بى أتوقف مرة واحدة وأمزق ما كتبت، ومدير التحرير ينظر إلىّ فى حيرة وارتباك، كوب الشاى معلقة فى يده، لا يدرى هل يتراجع بها إلي فمه الفاغر، فيداريه بالسكات، أم يتقدم بها إلي حافة المكتب وخطر السؤال.

وكانت رياح عنيفة، متعاكسة الاتجاهات، تهب فى الخارج وتندفع من النافذة المفتوحة، فتتطاير مزق الأوراق فى وجه مدير التحرير، وأنا أملأ صدرى بالهواء، فأحس بريح أليفة ولسان حالى يقول بصوت مسموع: عمة سلطانة ... ألف رحمة ونور.

حنان الشيخ

صريف أقلام الملائكة

«لا تستعملى إبريق الصفيح للوضوء، افركى وجهك بصابون الزيت، لا تنظرى ولا تستحلى القمر. لا تضيفى أقراص النيل إلي شراشفك، يجب ألا يرتفع صوتك عن الوشوشة خاصة فى حضور رجل ولو كان فى الغرفة المجاورة. إذا أردت النحنحة أو التأوه ادخلى الي الحمام. لا تنسى. ثلاثة أشهر وعشرة أيام، من الأفضل اربعة أشهر. تلازمين اثناءها البيت. ليل نهار، ليل نهار حتي اذا توعكت لا تغادريه، لكن اذا اشتد عليك المرض نادينى وأنا سوف أذهب معك. اياك وصديقاتك المتبرجات، لا تستذوقى الأكل الطيب ولا تشمى الورد ... لا».

جلست شادية بملابسها السوداء، بين صفين من النساء النائحات والصامتات متمنية لو تترك وحيدة لحظة واحدة، ووجهها الأصفر الشاحب يلم بكل ما يجرى حولها من نظرات ومن كلام لم يكن يقال. النائحات كن قريبات زوجها الذى توفى فى حادث سيارة. والصامتات كن قريبات ومعارف أهلها.

تتمني لو أنها لم تزل معه فى المستشفي رغم فراره أخيرا من بين أصابعها. كانت جميلة تلك الأيام إذا ما قيست بما تمر به الآن. كان لها وحدها فى الغرفة. تجلس معه ساعات الليل والنهار. تراقب وجهه وجسمه غير مصدقة أن الحوار بينه وبينها أصبح ثانية واحدة، لحظة تململه فقط. لتهب علي إثرها من جلستها عند قدميه، حيث تقوم

بفركهما طوال الوقت، وتمسك بوجهه. فيومئ لها بعينيه، بجبهته، بأنفه لم تكن تعرف، تريح خدها علي خده، فتشعر برطوبة لعابه، ربما يريد أن يقبلها. يتمتم بما لا تفهمه، ثم يمد لها عينيه، كأنه يهبها كل ما يملك، أم أنه يظهر لها طرف لسانه. عندما تهبط علي فمه تقبله، وتدنى شعرها منه واضعة خصلة فى كفه ثم مطبقة عليها بأصابعه، فما إن يشد عليها بدوره حتي تفرح ... وهكذا تظل الساعات متسمرة إلي جانبه، تنظر إلي عروق كفه، إلي أصابعه، وهى تقبض علي الشعر الأسود، بينما يعود هو ـ رغم خيبتها ـ الي سباته العميق لتجد نفسها تتراجع بعد قليل وتبارك هذا النوم لعله يمده بالراحة والشفاء. ولم تكن تتحرك من جلستها هذه، إلا عندما تدخل عليها المرضة فتستأنس بها شادية. كانت هذه المرضة وبقية المرضات معجبات بجرأتها وتفانيها فى الحب. ابنتها الصغيرة تلصق بها الآن. لكن شادية لا تشعر بأى عزاء. بل تدخل غطاء كثيفا من الكلام والهمسات فتخرج منه راكضة. لكن الكلام والهمسات تلحق بها هذه المرة. إذ لم تكن عن الإبريق والقمر والصابون غير المعطر ... «يللا يللا بكره بترجع لزوجها الأول، بترجع بتربى هالبنت ... يللا سبحانه وتعالي انتقم ...». عندما سمعت شادية هذه الجملة، اخفت وجهها بين يديها. وحتي لا يعكرن عليها صفو خلوتها، أحنت رأسها، وتكوّمت علي نفسها حتي أصبحت وحيدة كما تمنت سابقا.

ومضت فى العشق.

تستحضر رائحته. خاصة رائحة رقبته وتحت ابطيه. رائحته قبل النوم، وبعد النوم، قبل الحلاقة وبعد الحلاقة. ثم لتختمها برائحة أول قبلة. ثم تجد نفسها تتمايل وتتباطأ وتؤجل أين تود أن ترسوَ مقنعة نفسها بأنها كلما تمهلت كلما ترقبت بشوق كبير ما سوف ينتظرها. كلما استأنست بوجوده. لكنها لم تعد تصبر، تجد نفسها تمضى

بأفكارها وتصل الي اللحظة الذى كان يدخلها ولتعيش بها. اللحظة الأولي فقط، والتى كانت تفوق بزخمها ما يليها، حتي من الشعور بالنشوة، كانت تلك اللحظة هى نقطة ارتكازها، تذيب كل ما كان ينهشها: من حزن لترك ابنتها، ومن هلع لأن يتزوج حبيبها قبل أن تتمكن من الهرب من زوجها، ومن خوف لمواجهة عائلتها والجيران. وما ان كانت تشعر به يصل الي اعماقها، حتي كانت تتأكد انها قد خلقت من أجل هذه اللحظة ومن أجل هذا الرجل. فتغمض عينيها مستأنسة لنوم ضميرها والذى حسبته قد استؤصل منها.

لكنهن لا يتركنها الآن معه تماما مثلما لم يتركها عنف الكلام والمراسيل والتهديدات من قبل عندما هربت معه. اصواتهن تفد اليها. تشعر الآن بأنهن يحولنها الي عجينة بين ايديهن خاصة النساء فى صف عائلتها، إذ الأخريات كن يفكرن بفقيدهن بلوعة عظيمة، تجعلهن يتهمنها بأنها كانت السبب فى انتقام الله منه.

تحاول عمتها أن تعيد الي شادية اسمها السابق «رشيدة»، فشادية ترمز إلي عهده إذ هو الذى بدله بشادية. عليها أن تعود لتصبح حكيمة مثلها ... «فلا تتوضأ بإبريق الصفيح إذ فوهته تذكر بالرجل. وأن لا تشتهى التطلع الي القمر لأنه مذكر وأن ...».

وهكذا بقيت شادية مكبة علي إغماض عينيها والغيب بين رائحته ووصولها اليه ووصوله إليها، وتحسسه لكل جزء منها، حتي لأصابع قدميها. ثم لتأخذ فجأة احاسيسها تجاه آخر وهى تسمع الهمسات تعلو بأنها ستجبر علي العودة الي زوجها السابق هذه المرة، مباشرة بعد مدة العدة. وبأنها سوف تنقل الي بيت أخيها عندما يحين الوقت. عندها تجد نفسها تبارك الموت وتقرر انها ستموت. فتغمض عينيها وتكبت انفاسها تود الاختناق. تشد علي داخلها وكأنها تعصره. لربما

عصرت قلبها لدرجة الالتواء. وبدلا من أن تغيب عن الوعى، تحين منها نظرة الي كفها المعافاة، لا بد أن التوق اليه يتدخل فى قهرها هذا، ويمدها بالعافية والحيوية. تحاول الموت من جديد وهى تراه باردا لا روح فيه، وكأنه لم يعرفها قط. وبدلا من أن تغيب عن الوعى، تصعق وعمتها ترفع لها رأسهاعنوة: تبعد لها يدها المكومة عند حجرها، دافعة بدلا منها رأس ابنتها حتي تنام فى حضنها وهى تأمرها: «تجلدى. هذه سنة الله. من التراب الي التراب»؛ ثم تتابع: «عليك بالتوبة. عليك أن تعودى من أهل اليمين، حتي ينقهر خازن النار عندما يراك قد أفلتِّ من بين اصابعه النارية ... ماذا يطمح المؤمن اكثر من ذلك، طبعا اقلام الملائكة سوف تشطب لك فعلتك الأولي عن اللوح اذا عدت الي زوجك الأول، زيادة فى التأكد عليك أن تنظرى الي السماء فى الليل ـ بعد عدتك طبعا ـ وكأنك مضطجعة بين النوم واليقظة، وعندما ترين النجم يسرع هاربا أغمضى عينيك وتشهدى وتوبى، فهذا النجم سوف يسمع توبتك ويسرع ليرجم الشيطان الذى وسوس لك بالزنا ... توبى حتي تدخلى الجنة وترى: أرضها البيضاء مثل الفضة واللؤلؤ والمرجان، وترابها المسك ونباتها الزعفران واشجارها، ورقة من فضة وورقة من ذهب»*.

لم يرف جفن شادية لهذا الكلام، فهى لا تزال تحاول الموت لكن جملة واحدة اخترقت جهازها العصبى جعلتها تنتفض وتسترجع كل حواسها ونبضها باطمئنان وبصيص أمل. «الجنة هى المكان لجمع شمل الأزواج». لكن شادية تراجعت بالسرعة نفسها التى هللت بها وهى تسأل: «ألتقى بزوجى الأول أم الثانى؟»

سؤال شادية الذى اندفع من قلبها ويأسها ورعبها تدحرج فوق الآذان التى لم تسمع من قبل همسة أو كلمة حلوة أو نغما جميلا، مات علي الأفواه التى لم تذق سوي طعم البصل، وانقبر فى الصدور التى لم

تحمل بين اضلاعها سوي الكبت والهموم. وإذا بعمتها تشمئز منها فتصيح بها غير مبالية بالحاضرات، وكأن انتقامها أتي أخيرا: «عشت فى دنياك علي هواك، وألحقت بنا الفضائح التى ما زلنا ندفع أرواحنا من أجلها. اذا تبت لحقت بنا توبتك. لكنك تريدين أن تكفلى آخرتك أيضا. آه من حواء».

ثم انفجرت بها من جديد بكل شماتة وغيظ:

«طبعا زوجك الأول، هو الذى سوف تلتقين به فى الآخرة». بينما اخذت هذه الجملة فى طريقها الي شطر شادية الي شطرين تسمع احداهن تؤكد بأن الله يغفر كل افعال المحرمات ما عدا الزنا، عندها تستجمع شادية نفسها من جديد وتغمض عينيها وهى تستعيد ما قرأته إبان مراهقتها عن الآخرة والأهوال ...

«النساء المعلقات بشعورهن فى شجرة الزقوم والحميم يصب عليهن فيهرى لحومهن لأنهن شربن الأدوية حتي يقتلن أولادهن»*.

«ونساء قد احترقت وجوههن وألسنتهن مندلعات عن صدورهن لانهن قلن لأزواجهن طلقنا من غير سبب»*.

«لا بأس»، تهز شادية رأسها بكل اقتناع وهدوء. «لا بأس بكل هذا ...» وهى تبعد عنها صورتين. صورتها مع زوجها الأول فى السرير، وصورتها معه علي أرض الجنة.

سلوي بكر

كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها

-1-

بدا كل شىء طبيعيا، وفقا لطقوس اليوم المعتادة. الحجرات مرتبة ونظيفة، الأطباق علي المائدة تنتظر الطعام، بينما صوت المذياع الخفيض يثرثر بأنباء ما بعد الظهيرة، التى لا تتغير عادة، لكن عبد الحميد شعر بأن ثمة قلقا يهيمن علي زوجته، ويجعلها تدس رأسها بين كتفيها، أكثر من المعتاد، وهى تزدرد الطعام، ولا تجاريه فى الكلام، كما يجب، فسألها:

- مالك يا سيدة؟!

- أبدا.

ردت بوجوم، وذهبت إلي المطبخ متذرعة بأن الشاى فار من الإبريق علي النار، لكنها لما عادت بدت أشد اضطرابا، حيث وقع غطاء الإبريق علي الأرض، بينما كانت تهم بصبّ الشاى فى الأكواب. عاود عبد الحميد سؤالها عما بها بلهجة مستنكرة، فهمست له بحياء، أنها تريد أن تفاتحه فى موضوع، لكنها خجلة.

«خير؟!» قال، ثم أشعل سيجارة مخمنا الخبر، ستطلب فلوسا طبعا، وتتذرع بأمر طارئ، أو ستحاول إقناعه بزيادة المصروف الشهرى، فليس من موضوعات أخري خاصة، يمكن أن تخجل سيدة من طلبها غير هذه؟! كشر عن أنيابه، عاقدا ما بين حاجبيه، محركا رقبته يسارا ويمينا ليطقطقها، مستعدا لمعركة لابد واقعة بينهما، قرر أن يخرج منها منتصرا، مهما اشتد أوراها، فلن يدفع مليما أحمر واحدا، زيادة عما يدفعه للبيت كل شهر، حتي لو شافت سيدة حلمة أذنها. رشف رشفة من الشاى الداكن، المائل للسواد، وقال لها من بين أضراسه:

- قولى.

من قرار عميق، حاولت سيدة دفع شجاعتها لتستقر علي لسانها، وتنطق بما تود قوله، لكن الشجاعة كانت قد انزلقت سريعا إلي قاعها من جديد، وخرج صوتها ضعيفا بلا سند:

- أصل الموضوع هو أنى اكتشفت إنى ...

- حامل؟!

وقف الزوج صارخا، كمن فوجئ بجلوسه عفوا علي خازوق، وخرجت منه «معقول؟!» مزفوفة برذاذ الانفعال.

معقول أن تكونى حامل يا سيدة من جديد؟! طيب، وتربة أمى لأجعل نهارك ليلا، لو طلع الموضوع جد، لأنى زهقت من العيال وحملهم، وجيبى فارغ، يعنى لا خلفة ولا إجهاض وتصرّفى يا شاطرة.

هرش مابين فخذيه، وسار كالمجنون مقتربا من النافذة، التى تطل علي الشارع المفعم بضجيج الناس والسيارات، وفكر مغتاظا فيما يمكن أن يفعله معها. أيضربها؟ أيبطحها أرضا، ويركلها بقدميه حتي تدمى،

وتسقط ما بأحشائها، أم يفتح النافذة عن آخرها، ويلقى بها خارجا؟! ولولا السيجارة التى كادت تحرق اصبعيه، فعاد لدفن عقبها فى المطفأة، ربما ما وجدت سيدة فرصة ـ بعد أن استقلت شجاعتها مصعدا لتصل إلي لسانها ـ لتقول له:

ـ بلا حمل بلا كلام فارغ، الموضوع ان صوتى أصبح جميلا جدا.

ـ سمّر عبد الحميد نظراته عليها لثوانٍ ، ظل خلالها حائرا، ثم انفجر ضاحكا ضحكا هستيريا، كمن سمعً لتوه نكتة لا نهاية لها، بينما دفقات الدم تتصاعد بحدة إلي رأسه، فتجعل وجهه المنتفخ أشبه ببالون أحمر علي وشك الانفجار، وبقيت قسماته وأسنانه تتبادلان الحركات فى موجة مستمرة من الانفعالات، لم يوقفها إلا صوت زوجته الغاضب:

ـ اسمع الكلام ، الأول.

جلس. فأخذت تحكى له ما حدث لها علي وجه التحديد، فبعد مغادرته المنزل فى الصباح إلي شغله، وبعدما ذهب العيال للمدارس، بقيت هى وحيدة كعادتها فى البيت، وشرعت فى قضاء أشغالها، الكنس والمسح والطبيخ وترتيب الحجرات، ثم انها بعد أن أذن الظهر قالت لروحها: «فلتدخلى الحمام يا بنت وتصبى علي جسمك سطل مياه، ينعشك وتزيلى به الوساخة». لكن بعد أن خلعت سيدة هدومها، وغسلت رأسها مرتين، وبينما كانت تزيل الصابون عن عينيها، خطر لها أن تغنى لتسلى نفسها كالعادة، وما إن شرعت فى أغنية «أحب عيشة الحرية»، حتي شعرت وكأن شخصا آخر دخل عليها الحمام، وبدأ يغنى بدلا منها، لأن الصوت لم يكن صوتها الذى تعودته، بل كان صوتا جميلا، رخيما، لا يمت لصوتها بصلة، فما كان منها إلا أن صبت علي عينيها الماء لتزيل الصابون عنهما بسرعة، وبحلقت فى الحمام ملتفتة

بحثا عن ابن آدم أو أي مخلوق آخر، وهى تسمى بالله وتستعيذ من الشيطان ، لكن نظراتها لم تصطدم إلا بالشباك الوحيد المغلق بإحكام، ومرآة الحوض الموضوعة علي رفها فرش الأسنان، وملابسها النظيفة المعلقة علي مسمار الباب، التى أخرجتها لتوها من الدولاب، فتشهدت وسكتت معاودة الاستحمام، فلما تيقنت أن لاصوت معها غير صوت الماء المنسكب علي جسدها، عاودت الغناء من جديد «أحب عيشة الحرية»، فخرج الصوت منها أكثر جمالا وصفاء وقوة، فتسمرت الليفة فى يدها علي فخذها، الذى كانت قد بدأت فى دعكه، وبسملت، وتعوذت من الشيطان الرجيم، ورغم اعتقادها بأنه لا يوجد عفريت إلا ابن آدم، إلا أنها خافت وتسارعت دقات قلبها، فنادت علي نفسها بصوت خفيض: « ياسيدة، ياسيدة». فأتاها أيضا صوت غير صوتها الذى تعرفه، وكان جميلا أيضا، فراحت تعلى الصوت أكثر، وتنغمه: «ياسيده ه ، ياسيده ه»، وقد انتابتها حالة من النشوة والفرح الشديد، لكنها انتبهت فجأة: «ربما سمعنى أحد، أو أنك رجعت إلي البيت يا عبد الحميد، لأى سبب من الأسباب، وسمعتنى أنادى نفسى، فتظن أن عقلى طار، أو جرت لى لوثة»، فسكتُ وخلى الرعبُ لسانى حطبة ناشفة، وأسنانى خبطت علي بعضها، وقلت لروحى: يمكن أن تكون حكاية العفاريت حقيقة، وبقيت أقرأ فى سرى «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق» لحين ما خلصت، ونشفت جسمى بالفوطة، ومن ارتباكى لبست الجلابية خلف خلاف، وفتحت الباب، وخرجت أجرى إلي الشباك، أبص منه علي الناس فى الشارع وأتآنس، ولما روحى ردت، وارتحت، رحت، قاعدة علي الكنبة، أسرح شعرى، وبعدها، وكأنى سمعت هاتفا، لقيت نفسى، من جديد، أغنى «ياحلاوة الدنيا يا حلاوة»، فتصور يا عُبَد، لقيت صوتى أحلي وأحلي، صوت كأنه طالع من الجنة، صوت يسحر ولا مثيل له فى الدنيا أبدا، وبصراحة، انبسطت وارتحت، وقلبى زال عنه الخوف، لأنى شعرت بأن من

المستحيل أن يكون الصوت صوت جن، فهو صوت إنسى، وطبيعى خالص، لكنه مختلف كثيرا، وغير صوتى القديم.

ثم انها قالت وهى تنظر فى عينيه بطيبة، ورضا عميقين:

ـ اسمع والنبى يا عبد الحميد.

وهمت أن تغنى، لكن عبد الحميد أسكتها بنظرة حازمة، وكأنه لم يسمع ما قالته أبدا، ثم سألها إن كانت قد أخبرت أحدا غيره بهذا الموضوع، فلما استنكرت استنكاره، وأكدت له أن الحكاية حدثت منذ ساعات قليلة، وأنها لم تقابل أى مخلوق سواه بعد خروجه فى الصباح، تنهد بارتياح، وطلب منها نسيان الأمر، و«إياك تفتحى السيرة مع أى كائن يا سيدة، وخصوصا العيال» فغضبت لأنه لا يصدقها، ثم انها حلفت أغلظ الأيمان لتؤكد أن ما قالته قد حدث بحق وحقيق، وأنها لا تشك فى العفاريت لأنها، منذ دخلتها فى البيت قبل عشرين سنة، ما شافت واحدا منهم، وتجمعت الدموع فى عينيها وهى تنفى بشدة أن يكون عقلها قد خف أو جري لمخها أى شىء.

جلس عبد الحميد علي الكنبة، وطلب منها أن تعمل له قهوة بسكر خفيف، وبينما هى تدخل رجليها فى خفها المنزلى، وتهم بالذهاب، صعبت عليه حالها، وقال لها:

ـ اسمعى يا سيدة. أنت فُتِّ الأربعين، وعندك أربع عيال، يعنى كلامك لتّ فارغ، يقلل من قيمتك، ويجعلك مضحكة قدام الصغار، فما بالك لو سمعه أى إنسان واعٍ؟!، ثم افرضى ان كلامك صدق، فما معناه؟! وناوية تغنى مثلا؟! تصيرى مطربة؟! أما حكاية والله!

ضحك بارتياح لأنه رأي الموضوع بسيطا، وبعيدا عن مخاوفه، التى

توقعها، ثم انه لطمها علي مؤخرتها مازحا، وهمس لها: « بعد القهوة تعالى نتمدد فى السرير مع بعضنا».

-2-

سارت الأمور، بقية اليوم، سيرها المعتاد، وكادت سيدة تنسي ما حدث لها عند الصباح، حيث ظلت تنجز شؤون الجزء الثانى من النهار بحماسها المعتاد، فطبقت الغسيل، ودارت بالشاى علي العيال وهم يستذكرون دروسهم، واقتنصت نصف ساعة للفرجة علي المسلسل التلفزيونى، ولما عاد عبد الحميد من المقهي، الذى كان قد نزل إليه بعد الغروب، أعدت له العشاء مع الأولاد، فمازح منهم من مازح، ووبخ من أراد توبيخه؛ لكنها فى المساء عندما اختلت بروحها، بعد أن غاب عبد الحميد فى النوم، فكرت حائرة فيما ستفعله حقا بصوتها، هذا الصوت الجميل، الذى اكتشفت فجأة أنه مدفون فى داخلها، كالذى اكتشف كنزا عجيبا ولا يدرى ما الذى يمكن أن يفعل به. أخذت تنشط فكرها، فكانت تأتيها إجابة منطقية وحيدة دوما: الصوت الجميل خلق للغناء. فلماذا لا تغنى ويسمع كل الناس صوتها، وراودها شعور بأنه من العدل أن يسمع الناس صوتها، وأنه لا علاقة للصوت بالعمر، فما المانع أن يسمع الناس صوت الإنسان بصرف النظر عن عمره ووضعه، سواء أكان رجلا أم امرأة. كانت قد اقتنعت تقريبا بهذه الفكرة، فتملكتها رغبة عارمة فى أن تجلس فى الفراش وتغنى «ياحلاوة الدنيا ياحلاوة» فهبت جالسة، وبينما هى تشرع فى فتح فمها لتبدأ، تقلب عبد الحميد فى الفراش وأحس بها، فنظر إليها بقلق، وسألها:

- مالك يا سيدة؟!

فقالت انها ذاهبة إلي المطبخ لتشرب، لأن ريقها ناشف بعض الشىء.

-3-

جن جنون سيدة، لما بدأت تغنى، فى صباح اليوم التالى، وهى تقف أمام الحوض، لتغسل المواعين المتخلفة عن وجبة الإفطار بعد خروج عبدالحميد والعيال، فعاودها الصوت الجميل مرة أخري، حيث بدا خلابا، سماويا، فياضا بالقوة والنقاء، وداخلها شعور بأنها كائن آخر، لا علاقة له بسيدة التى تعرفها، سيدة التى تمسح وتكنس، وتلف رأسها فى منديل كل يوم، لكونها لا تجد الوقت الكافى، الذى يسمح لها بأن تحط مشطا فى شعرها. شطفت يديها من الصابون بسرعة، وجففتها بطرف قميص نومها، الذى لم تخلعه بعد، وجرت إلي المرآة، فوقفت أمامها، وغنت: «أحب عيشة الحرية» فتجلي الصوت من جديد قويا، نقيا، واضحا، كقطعة من الجوهر النفيس. راقبت نفسها، شفتيها، وهما تتراقصان بنشوة، الكلمات المنغمة، عينيها المشعتين بالحماس والفرح، وجنتيها المشربتان بحمرة دماء غريبة، خالت أنها تفجرت من ينابيع خفيّة بجسدها، حاجبيها اللذين يتقابلان وينفرجان فى حركات منظومة ويقودان ملامح الوجه فى تناغم بارع وكأنهما يدان ماهرتان لقائد فرقة موسيقية رائعة.

شعرت بأنها جميلة، ربما لأول مرة منذ زمن بعيد. داخلها هذا الشعور مجددا. توقفت تنظر إلي وجهها، استنكرت إهمالها لحاجبيها وتركهما دون رعاية وتنسيق، وخجلت من اكتشافها لشاربها الخفيف أسفل أنفها، وحزنت لأنها تتجاهل شعرها إلي هذا الحد، ثم انها شعرت بغضب من نفسها، فلماذا تترك حالها علي هذا النحو، بينما هى تمتلك هذا الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها. توقفت. قررت: «لكى أغنى مفروض أن أشعر بالجمال، أى والله مفروض».

-4-

ارتدت سيدة ملابسها بسرعة، فقد كان عليها، ولابد، أن تنزل للشارع لتشترى الخضار والعيش قبل رجوع عبد الحميد والعيال إلي البيت، جلبت كل الطلبات، وذهنها مشغول بالموضوع إياه، لم يكن لديها، بالطبع، أية خطة تتعلق بكيف ستغنى ومن أين تبدأ، وكيف ستواجه عبد الحميد بهذا القرار، فكرت فى الذهاب إلي أية صديقة لتبوح لها بالسر، كما تفعل النساء فى الأفلام، لكنها اكتشفت، ولأول مرة فى حياتها، أن ليس لديها صديقة واحدة، إنسانة حميمة، قريبة إلي قلبها، غير أمها وأختها عواطف، اللتين كانت قد استبعدتهما من البداية، بسبب علمها المسبق بموقفهما، لو حكت لهما الموضوع، وهو السخرية منها، والضحك علي كلامها وتحويله لنكتة، ونشرها أمام كل من دخل عليهما من الأقارب؛ فكرت فى أم حسن جارتها، لكن أم حسن رغم علاقتهما الطيبة جدا، عمرها، ما كان بينها وبين سيدة أسرار. وشعرت لأول مرة فى حياتها بالحقد علي عبد الحميد، لأن له أصحابا يقعد معهم فى المقهي، وسيد اسماعيل صاحبه، الروح بالروح، الذى يمكن أن يكون حكي له أسرارا، عمره ما قالها لها، رغم كونها وليفته وولدت منه أربع بطون.

ظلت انفعالاتها متلونة، بألوان متباينة، حتي وهى تدخل دكان عيسي البقال لتبتاع منه جبنا ومكرونة وعشر بيضات، ولم يكن عيسي العجوز بحاجة للتدقيق حتي يلاحظ اضطرابها، فسألها: مالك مرتبكة فى الصبح يا ست سيدة؟ .. وقبل أن ترد قرر أنه يعرف، فالحياة صارت صعبة، والغلاء غول سارح فى كل شىء بلا ضابط أو رابط، بينما الناس تمشى وهى تكلم أرواحها من الغلب وقصر اليد (طبعا كان عيسي قد لاحظ أنها تكلم نفسها قليلا)؛ ثم قال لها ـ وهو البقال القديم الذى يتعاملون معه منذ زمن طويل، وتربطه بهم علاقات جيرة ومودة ـ إنه عارف أن عبد الحميد يسعي علي قدر مستطاعه، ليسد طلبات العيال، وإن عليها أن تطول بالها عليه، غير انه تعجب لما

وجدها تنفجر باكية، فجأة، وتنشج كمن مات له ميت، فسحبها عيسي من يدها، وأجلسها علي كرسى، ثم فتح لها كازوزة وقال لها: روقى واخزى الشيطان.

كان الوقت صباحا، والدكان لم تؤمه الزبائن بعد، فاقترب الرجل منها هامسا بجد: «حصلت مشكلة بينك وبين عبد الحميد لا قدر الله؟»، فصعبت عليها نفسها أكثر ، وانتحبت من جديد، فلما استعادت نفسها قالت له: «اسمع ياعم عيسي، محتاجة أن أكلمك فى موضوع، خصوصى، بعض الشىء، بشرط، تحاول تفهمنى ولا تتكلم مع عبد الحميد بشأنه، لأنه حلف يمينا بالطلاق أن «أكفى علي الخبر ماجورا» وأمتنع عن الكلام مع أى مخلوق بخصوصه».

شعر عم عيسي بأن الموضوع خطير فعلا، وتملكته رغبة لا تقاوم فى سماع سر عائلى، يخص بعضا من سكان الشارع. سرت فى روحه متعة المقبل علي معرفة نميمة جديدة لابد أن يوظفها سريعا، فجر كرسيا واقترب منها جالسا. ليسمع الحكاية دون أن يفوته حرف واحد منها، فقالت كمن يدلى بسر رهيب:

ـ حصل أنى اكتشفت صوتى.

أخذت تقص عليه ما حدث لها، وما كان من كلام بينها وبين عبد الحميد بخصوصه، لم يضحك الرجل، أو ينبس ببنت شفة، كما يقولون فى الكتب. فلما انتهت من حكايتها، وقالت له، وهى تبتسم خجلة، إنها مستعدة لأن تسمعه صوتها الجميل، ليتأكد بنفسه من كلامها، نظر إليها بتمعن مشفق، وقال لها:

ـ اشربى الكازوزة يا سيدة!

لم تشرب الكازوزة، بل أخذت ما اشترته منه، وذهبت، وعندما عاد عبد الحميد بعد الظهر، وأثناء تناولهم للغداء، قال لها انه اشتري كبريت، وهو راجع إلي البيت، من دكان عيسي البقال، وسيذهب إلي الطبيب عند المساء، ويجب أن ترافقه.

-5-

لما وصلا عيادة الطبيب النفسى، كانت سيدة مقتنعة بعض الشىء بفكرة زوجها، الذى قال انه يحبها، ولا يريد إلا مصلحتها ومصلحة الأولاد، وإن المرض النفسى مثله مثل أى مرض آخر، ولا عيب فى ذلك، بل وقابل للشفاء، لكن المهم أن يعالج بسرعة، وفى بدايته، وإنها والحمد لله بخير، لكن حكاية الصوت ربما يكون سببها الإرهاق من شغل البيت، أو أى مشكل مخفى جواها ولا تشعر به، لأن داخل كل إنسان بحرا وسيعا لا قرار له، والنفس سرها عميق، وسبحانه وحده العارف بما فى داخل كل ابن آدم، المقصود، الإنسان صعب أن يعرف نفسه يا سيدة. والطب جعل للظروف الصعبة، ثم إنى يا سيدة، رغم تعليمى البسيط، مؤمن وموحد بالله، لا أؤمن بحكاية الجن والعفاريت، لأن ربنا قال فى القرآن: «وجعلنا بينكم وبينهم سدا منيعا»، ثم، يا أختى، خلينا نجرب، القصد، غرامة عشرة جنيهات من ضمن الفلوس الطيارة طيران العصافير، ولا عارفين نتحكم بها، لكن يمكن أن يكون فيها الشفاء بإذن الله، وكل شىء يرجع لطبيعته، وتستريحى، ثم انك الصبح قلت لعيسي البقال، لكن بكرة أو بعده، يمكن، غصبا عنك، أن تقولى لغيره، أو يحصل شىء يخلى صورتنا قدام الناس مسخرة، ويطلع عليك كلام، بدون داعٍ، وأنا، يا سيدة، لولا أنى باقٍ عليك، وعلي العيال كنت صهينت علي الموضوع، وسكت، لكنك عارفة بمعزتك عندى، لأنك أم أولادى وشريكة عمرى.

دخلا مكتب الطبيب، وجلسا، وبدا لها الرجل الذى سألها عن

مشكلتها، متبرما، ومتأففا، وقلقا، وفى عجلة من أمره، فبدأ عبد الحميد، يحكى له القصة باختصار، لكن الطبيب طلب منه، وهو ينقر بقلمه علي زجاج مكتبه، أن يتركها تحكى، فقالت سيدة كل ما عندها منذ اللحظة الأولي لدخولها الحمام، وحتي حديثها مع عيسي البقال، فلما أكملت، وهى التى لاحظت أن الرجل استمع إليها باهتمام دون مقاطعة، سألته، وهى تبتسم مسرورة، لشعورها بأنه تفهم موقفها:

ـ ممكن ، أسمعك غنوة صغيرة، يا دكتور؟

لم يظهر أى تعبير بالاهتمام علي ملامح الطبيب، الذى يبدو أنه اعتاد مثل هذه الأشياء، لم يبتسم، لم يكشر، لم يرد. فقط، كتب كلمات بلغة أجنبية فى ورقة، ثم أعطاها للزوج وقال له: ثلاث حبات يوميا من النوع الأول، بعد كل وجبة، وحبة كل مساء قبل النوم، ثم التفت إلي سيدة قائلا: ابتعدى عن أى شىء يسبب لك التوتر، ولا تبقى بمفردك أبدا، أديرى المذياع وأنت فى الحمام، كلى جيدا، ولكن حاولى أن تمشى وتنقصى وزنك لأنك سمينة، وداومى علي الدواء، وعندما تشعرين بأنك متضايقة، وحالتك سيئة، تعالى بسرعة إلي العيادة؛ ثم وقف ومد يده إليها قائلا:

ـ أهلا.

-6-

خرجوا كعادتهم، وبقيت هى، وحيدة فى البيت، قامت متكاسلة دون حماس تلم صحون ما بعد الإفطار، التهمت ما تبقي من طعام، فى الأطباق؛ وهى تقول لروحها كالعادة: «حرام أن أرمى لقمتى الفول فى الزبالة، وفتات الجبن لا يستحق أن أبقى الطبق له» ثم انها أعدت لنفسها كوبا من الشاى، راحت ترتشفه مع قضمات من كعكة جافة بقيت وحيدة علي طاولة الطعام، فلما شعرت بالامتلاء الزائد قامت

لطيفة باقا

حذاء بدون كعب

الاثنين 12/24

ركلت الهر الضخم. أخذت النساء أمام قاعة الأكل يضحكن. وصلت الممرضة .. فتحت الباب، دخلنا وعمت الجلبة. وضعت صحنى فوق المائدة .. وذهبت إلي ركن الغرفة لأأخذ كرسيا. لكزتنى حلومة بمرفقها وهمست وهى تغمز بعينها أن الطلبة الأطباء قادمون. نظرت ناحية الباب الحديدى: كان هناك حشد منهم برفقة الدكتور «زهير» صرخت فينا الممرضة أن نأخذ أماكننا بسرعة. ابتسم لى الطالب الأشقر ذو الشارب الكث، ثم وضع يده علي كتفى وسألنى بالفرنسية عن حالتى الصحية. رأيت الدكالية* فى المائدة المجاورة تبتسم. ضغط الدكتور زهير علي زر الشاشة الإشعاعية، احتشد حوله الطلبة وأخذ يشرح لهم الصورة التى كان قد وضعها علي الشاشة. سمعت أحدهم يسأله إن كان لا يخشي علي الحالة رقم «42» تذكرت «ميلودة» لم تكن بالقاعة. همست فى أذن حلومة بجوارى:

- أين هى ميلودة؟

- بسريرها .. لم تستطع أن تقوم للغداء.

- وهل حملن لها الطعام؟

* نسبة إلي دكالة

- لا أدرى.

مرت قربى الممرضة فاطمة، أشرت لها أن تقترب منى .. ثم سألتها إن كانت قد حملت الطعام للمريضة رقم «42» هزت رأسها بالإيجاب.

كانت الصورة الإشعاعية لرئتى ميلودة علي شاشة الجهاز .. كلنا نتناول طعام الغداء .. عدس وسلطة طماطم وبصل مع قليل من الزيتون .. خمس حبات لكل مريضة. الدكتور «زهير» يختم حديثه عن حالة ميلودة بقوله إنها حالة عادية ويضيف أنه ليس هناك أية حالة ميئوس من علاجها فى الجناح. غادروا قاعة الأكل قبلنا. من زجاج الباب رأيت أمى حليمة تغادر الجناح خلفهم دافعة أمامها عربة الطعام.

أمام المغسلة أخبرتنى «أمينة» أن ميلودة كانت تحلم ليلة أمس. وعندما سألتها ماذا تعنى بذلك، قالت إنها كانت تصرخ وتئن خلال نومها ... سألتها إن كانت متأكدة من أنها كانت نائمة .. هزت رأسها بالنفى.

مسحت يدى علي سروال بيجامتى وتسللت قبل الأخريات خارج المغسلة لأزور ميلودة. كانت تسدل جفنيها علي عينيها الواسعتين وتتأوه ... سألتها عن حالها .. هزت رأسها فى محاولة لشكرى وابتسمت. فكرت أنها جميلة .. تأملت شحوبها ... وزرقة شفتيها وقمت إلي «صالتى» قبل أن تضبطنى إحداهن خارج سريرى.

كانت الصالة فارغة تقريبا من الزوار عندما وصلت جدتى. دائما بنظرتها التى يختلط فيها خوف قديم بدهشة طفولية، وكانت كالمعتاد تحمل القفة الزرقاء والجريدة تحت إبطها. أخذت منها الجريدة قبل أن أقبلها ثم أحمل عنها القفة. حيث جدتى نساء الصالة ثم جلست علي حافة السرير تسألنى عن صحتى وعن موعد خروجى ... كان

جليا أنها أصبحت تضيق من عناء الزيارة ومحنة الحافلات اليومية.

لن تمكث معى طويلا. ليس هناك ما نقوله لبعضنا ولا أرغب فى تكرار نفسى. ثم انها لم تتضايق ابدا من انشغالى عنها بالجريدة. لم يكن يبدو عليها أنها تنتظر منى سلوكا بعينه ولم أكن أنتظر منها أكثر من القفة الزرقاء والجريدة .. ونظرتها المحببة تلك .. هكذا فكرت وأنا أتفحص العناوين فى الجريدة.

نظرت الي ساعة يدها الرجالية ثم جرّت إليها القفة. أخرجت خبزة من الشعير وقنينة من الماء المعدنى وعلبتين. فتحت إحداهما وأرتنى سمكة مقلية ثم عادت فأغلقتها. علي اليمين الدكالية تثنى رجليها الطويلتين وتضمهما الي صدرها الضامر ... كانت تبتسم موسعة ما بين ركبتيها. وضعت جدتى ثلاث علب ولفافة فوق الخزانة الحديدية الصغيرة بجانب السرير. ألقت بحقيبة يدها القديمة (متي رأيت هذه الحقيبة لأول مرة؟) داخل القفة ووقفت .. فهمت أن علىّ أن أرافقها حتي الباب الحديدى الذى يفصلنا عن جناح الرجال وحديقة المستشفي. قبلتنى عند الباب وذهبت دون أن تلتفت.

وقفت أراقب أحد المرضي العجزة يحلق ذقنه علي مرآة مكسرة بين فرعى شجرة أمام الجناح الرجالى ... ضبطنى فابتسم، ثم بدا كأنه تحدث إلىّ .. لم أتبين جيدا الذى قاله ... ابتسمت ورفعت له يدى . خلف الأشجار رآنى الحارس فصرخ فىّ أن أدخل ، سمعه الشيخ .. ضحك وأشار لى برأسه أن أتماثل للأمر ...

نظرت للحارس، الذى أخذ يقترب. أخرجت له إصبعى الوسطي و ... دخلت ...

الأربعاء 26 / 12

حالة ميلودة تزداد سوءا...

حلومة تجلس تحت الشجرة الهرمة تحاول قراءة الجريدة .. أتذكر أول مرة رأيتها فيها .. كانت تقف فى الطابور أمام المطبخ، صحنها فى يدها، تبدو الأطول بين النساء بكعبها العالى .. بعد ذلك رأيت كيف كانت تدخل الحوارات مع بعض المريضات بعفوية تامة .. فى ليلة نفس اليوم ضبطتها تدخن فى المرحاض بعد أن نام الجميع. ضحكت بدون صوت ونظرت إلي سجارتها ثم إلىّ فسألتنى عن توقيت الاستيقاظ من النوم فى هذه المستشفي...

حكت لى بعد ذلك ـ ونحن تحت الشجرة العجوز ذات أحد ـ قصتها مع ابن خالتها ...

– كانت المناسبة عرس إحدي القريبات وكنت بصحبة البنات ننقل الماء من البئر .. تأخرت عنهن قليلا، كان هو هناك يراقبنى منذ خرجت من خيمتنا طلب منى أن يحمل عنى القلة وهناك بين الأشجار فى الطريق الخالية .. كسر «قلتى» .. حضرت بعد ذلك خالتى والعائلة وكانت أمى وأخواتى البنات يبكين. أكبر اخوتى وهو جندى بالصحراء توعدنى بالقتل .. كنت مرهقة وأريد أن أختفى من أمامهم جميعا. لم تكن البكارة تعنى لى شيئا بعينه .. لم يهمنى شىء أبدا .. كنت أرفضه زوجا .. شىء واحد كان أكيدا .. كنت أحتقره ..

تقول حلومة ان ذلك كان منعطف حياتها الرئيسى. أخذت تاكسى حملها إلي الرباط.

تضحك حلومة .. تضحك ملء مرارتها وهى تحكى ..

ـ أتدرى عندما أردت أخذ بطاقتى الوطنية سألنى الموظف عن مهنتى فأجبته:

«قحبة».

أراها ترمى القط الضخم بحجر .. ولا تصيبه.

أخبرتنى وأنا أرتشف معها الشاى فوق سريرها أنها حاولت الانتحار أكثر من مرة. فى إحدي تلك المحاولات كانت ثملة وفى قمة اليأس .. لبست جلبابها وخرجت جهة السانيات ومعها قارورة من دواء البرغوث أنقذها سكيران كانا هناك يشربان.

المساء ...

«أكثر النساء حقيقية وعفوية عاهرات» كتبت خلف الصورة التى أهدتنى إياها حلومة هذا الصباح والتى تمثلها وهى باللباس الزمورى الجميل.

الدكالية مستلقية الآن علي صدرها تقضم تفاحة كبيرة. راق لى منظر ساقيها الطويلتين وهما تتأرجحان فى الهواء وسط سروال البيجاما، فكرت أن هؤلاء النساء لم يسبق لهن أبدا أن ارتدين سراويل طويلة: هن الآن مضطرات لا غير.

بعض النساء نائمات والبعض الآخر يحملق فى الفراغ.

من خلال زجاج الباب رأيت الممرضة نوال، التى يفسر جسدها الصغير كطفلة غرورها واعتدادها المضحك، كانت تعنف لحلومة الزمورية*. فى ذلك الصباح البعيد وجدتها تصنفنى مباشرة إلي اليسار المتطرف، «المريضة رقم 36 فوضوية» فتقف عند رأسى الطبيبة ذات الشعر الأحمر الطويل، كجنيات الأساطير المرعبة، تتعجب

* نسبة إلي منطقة زمورة.

لعدم «وقوفى» إلي جانبهم لإرساء النظام داخل الجناح مع أننى «قارية وواعية».

ألتفت حولى، فكرت أن أقف فى الوسط وأخطب فيهن بخصوص ما يحدث داخل هذا الجناح ... عن المرحاض الذى يفتح ويغلق حسب توقيت محدد ... وخطر التجول فى حديقة المستشفي... عن الأسمال الإجبارية التى يسمونها بيجامات .. والدوش ... الدوش الذى أدلقوه فوق رؤوسنا حارا .. أردت أن أدعوهن «للتمرد علي الوضع »... ظللن صامتات يحملقن فى الفراغ أمامهن. الساعة فى معصمى تشير إلي الرابعة. تأملت وجوههن المنطفئة واحدة واحدة، ثم انقلبت بجسدى الواهن وانسحبت بعيدا بتفكيرى أراقب بعض الطيور التى كانت تحط علي الشجرة الهرمة أمام الصالة. أخذت أعدها. أربعة .. بل خمسة. طار واحد وحط بجانب الآخرين .. فى هذه الفترة من الظهيرة من توقيت المستشفي يظل الكل شاردا ومحملقا فى الفراغ ... حتي الطيور. لم يعد الآن علي الشجرة سوي طائرين صغيرى الحجم إذا ما قورنا بالطيور الأخري التى كانت تحلق الآن فى السماء .. سماء المستشفي.

ساعة القيلولة، حين يستعصى علىّ النوم عادة. الدكالية تعد أيامها التى مرت وأيامها التى ستأتى بهذا الجناح .. وتستعمل أصابعها فى ذلك .. ساقاها مازالتا تتأرجحان فى الهواء .. توقف المنظر عن أن يسلينى. زلت قدم الهر الضخم فوقع فى برميل القمامة .. هناك كائنات هامشية تقتات علي حساب بؤسنا .. صعد الهر ببقايا كعكة فى فمه .. عيناه صفراوان. رأي بعض القطط الصغيرة قادمة من جهة المطبخ .. لم يعرها انتباها، ومن جهتها لم يصدرعنها أى سلوك بإمكانه إزعاج الهر الكبير .. حاول أحدها تسلق البرميل .. ظل الآخران فى الأسفل يبحثان فى الفضلات .. لماذا لم أستطع أبدا أن

أحب القطط؟

فى الجريدة قصيدة مترجمة لشاعر لا أعرفه، الشاعر يتحدث عن شجرة تتضخم عند المساء وعن مصابيح تلمع ليلا بين أوراق الشجر. تذكرت الضوء الذى يظل يزعجنى ليلا ولا أعرف مصدره. ذلك الضوء الذى يقتحمنى من وراء النخلة العملاقة التى تبدو سوداء عظيمة خلال الليل من مربع زجاج الباب فى «الصالة». أخبرت الدكالية بذلك فقالت إن المريضة التى كانت قبلى فى هذا السرير كانت تشكو أيضا من نفس الشىء.

«إنها سجن. ليست للعلاج أبدا». كانت الدكالية تردد وتلعن زوجها الذى أدخلها إليها .. وكنت أفكر بالخارج.

عندما يأتى الليل تستخرج النساء «طشتات» الغسيل البلاستيكية الصغيرة من تحت الأسرة لتحيين حفلة المساء. أحيانا كانت «مى غنّو» الحارسة الليلية تقبل بجثتها الثقيلة فتعنف لنا ثم تطفئ النور وتغلق الأبواب ... وتنسحب كما حضرت بخطوات بطيئة تئن فيها «بلغتها» تحت وطأة جسدها الضخم الهرم.

ذات ليلة وبعد أن ذهبت «مى غنو» وعم السكون فى الجناح بأكمله أنير المصباح فجأة وانطلقت ضحكة هستيرية مدوية ثم تتالت الضحكات والصياح وكلمات متداخلة من نوع «ويلى» و «حشومة». كانت النساء يضحكن ويخفين رؤوسهن وأمامهن كانت «فاطنة الزايانية»* تنزع سروالها وترقص متنقلة بين الأسرة.

فى الصباح رأيت فاطنة الزايانية مقرفصة فوق فراشها تكحل عينيها كعادتها كلما اقترب موعد قدوم الزوار. مدت إحداهن رأسها

* نسبة إلي منطقة زايان فى البادية

نحوى وأخبرتنى أن فاطنة كانت تعمل «بارميت» فى صباها وأنها شيخة متقاعدة كما أنها عملت فى المنازل والفِرَمات إلي أن استقر بها الحال بالمستشفي..

- إنها طيبة .. وزهوانية مع رأسها...

ضحكت المرأة وأشارت إلي الزايانية التى كانت تمشط بعض الشعيرات المتبقية علي هامتها. عرفتها عندما جاءتنى، فى ذلك المساء البعيد، بورقة وطلبت منى أن أكتب لها رسالة. وحين حمل لها الدكتور زهير خبر خروجها وضعت الزايانية علي خزانتى باقة الزهور التى كانت تزين بها خزانتها وقالت ان «الزهور كنفاجى شويا علي الخاطر». لحظة المغادرة بكت وقبلتنا جميعا بعد أن اقترضت منى ألف فرنك ومن الدكالية جلبابها وقفتها علي أساس إرجاع كل ما استعارته خلال يوم أو يومين علي الأكثر .. ثم تقدمت بخفة نحو الباب الحديدى الذى كان قد فتح لأجلها .. لم تستطع أن تخفى سعادتها .. أبدا لم تكن الزايانية أكثر جمالا وأناقة من تلك اللحظة .. التفتت إلينا بنظرة أخيرة. ضحكت، رفعت يدها ثم غادرت الجناح .. ولم تعد (!) سألتنى الدكالية:

- لمن أرسلت فاطنة الزايانية تلك الرسالة؟

- لا أعرف .. لأحد أقاربها أعتقد.

لم يبدُ علي جوابى أنه أشبع فضولها: نظرت إلىّ باستنكار، ثم أضافت أنها لم تكن تحب تلك «القحبة الشارفة»، وعموما هى لا تحب الزايانيات ولا الزموريات ونعتتهن «بشلوح الخنز».

الخميس 27 /12

أمشى منحنية الظهر منذ يومين. أمى الطاهرة، المريضة التى تنام أمامى، تدلك لى صدرى وظهرى ليلا بالزيت وتحزم حولى الخرق لأتدفأ، بعد ذلك تلفنى جيدا بالأغطية قبل أن تذهب الي سريرها. الدكالية تضحك وتلقبنى بـ «منانة» لأن منانة كانت أيضا لا تستطيع أن تستوى واقفة.

فى هذا الصباح زارنى أبى. كنت أصارع حمتى وكان هو يضع يده علي جبينه وينظر إلىّ من الأسفل .. أخبروه أننى محمومة منذ ليلة البارحة وأن الحمي كادت تقضى علىّ عند منتصف الليل. نمت قبل انتهاء الزيارة .. كنت أشعر بنظرات أبى تسقط حنونة علىّ. راق لى أن أترك المشهد هكذا و .. أنام.

أأخذ قرصا مهدئا.

الدكالية تضع الفوطة علي وجهها وتبكى بصمت. كسرت قطعة شوكولاطا وناولتها إياها. أخذت أراقبها وهى تضعها داخل قطعة من الخبز وتأكلها ..

الساعة تشير الي الرابعة بعد الزوال. الطبيبة ذات الشعر الأحمر تمنع أب ميلودة من الدخول وتحيله إلي الإدارة .. أب ميلودة العجوز يمر .. تدفعه الطبيبة وتنادى علي الممرضة .. ثم تطلب منها أن تطرد، «هاذ العروبى الموسخ» الممرضة تستعين بالحارس ... الحارس يضبطنى أراقبه خلف زجاج الباب ... يهمس للممرضة بأمر ما .. ينظران معا إلىّ ثم يسوقان أب ميلودةخارج الجناح ...

فى الجريدة إعلان عن أمسية شعرية سيحييها الشاعر ليلة رأس السنة. لو أنط من الجدار ليلا! تنفجر فى رأسى ضحكة قوية .. سيكون ذلك مثيرا، خاصة إذا استقريت جثة أسفل الجدار واكتشفونى

فى الصباح .. صباح السنة الجديدة ...

الجمعة 28 / 12

حدثت أمينة وحلومة عن فكرة القفز من الجدار، حلومة وجدت أن الفكرة جيدة وأمينة علقت بأنها إن تسللت إلي الخارج فى ليلة ما فلن يكون من أجل أمسية شعرية ..

ـ هناك أمور أكثر شاعرية فى الخارج ...

ثم دخلت فى حوار مع باقى النساء.

حلومة قالت انها تعرف شاعرا فى بلدهم يطلق عليه ناس الدوار حمزة لهبيل لأنه لا يتوقف عن الغناء .. ثم أضافت أنها كانت تشفق عليه وتناوله بعض الخبز و «الشريحة» من حين لآخر.

عربة مى حليمة تمزق صمت الجناح. وقت العشاء: الخامسة والنصف. رأيت الدكالية تقفز من سريرها وتحمل طبقها وتخرج. تبعتها باقى النساء ... لو فقط أستطيع الآن أن «أخترق» الباب الحديدى ... فى هذه اللحظة بالذات .. لكن الجسد كسمكات «بريفير» ينكمش الآن داخل البيجاما داخل فراش بارد فى «صالة» عديمة التدفئة فى جناح الجنس الثانى المحاط بسور عال يفصله عن جناح الجنس الأول فى مستشفي بضواحى المدينة .. ماذا يحدث الآن بالمدينة؟

خرجت جميع النساء. يستقر نظرى علي النافذة المغلقة يقول Brel انه يفضل أن يعتقد أن نافذة مغلقة تبيح للعشاق أن يحبوا بعضهم بشكل أفضل .. قالت الدكالية ان النافذة تطل علي الخارج، وانها أغلقت منذ ذلك الحادث المشئوم.

الزايانية وحدها كانت تعرف كيف تحكى قصة النافذة تقول إنه حادث طبيعى .. رجل «ينط» لصاحبته المريضة يضىء الشموع فى جسدها المنطفئ ... ومنذ ذلك أغلقت هذه النافذة .. كى تعيش النساء وحدتهن بشكل أفضل ..

أمينة أسرت إلىّ ذات مساء أن صاحبها «الوحش» طلب منها أن تحاول فتح النافذة ..

كان صديقها الضخم يجلب لها «الصوصيت» والفواكه ولا يغادر الجناح إلا بتدخل من الحارسة. فى إحدي زياراته رأيتها تضع يدها بين فخذيه وتضحك .. ثم رأيته ينزع يدها ويهب واقفا، وبخلاف كل المرات أنهي زيارته قبل الأوان.

عندما خرج قفزت إلي فراشى وعانقتنى ثم همست «أرغبه». ثم أضافت «انه عنّ». فى إحدي تلك المرات التى جاءت فيها لتستمع معى للراديو قالت لى انه يحبها لكنه لا يستطيع أن يسعدها أبدا ... هو يقسم لها أنه لولاه لكانت قد أصبحت عاهرة «من زمان» ... إنه علي حق تقول أمينة وتضحك .. حكت لى كيف كانت تتجرد من ملابسها كاملة وتسدل شعرها الأشقر الناعم علي وجهها ونهديها وتجلس قبالته .. كان يناولها كؤوس «البيرة» واحدة تلو الأخري .. وهى تنتظر ... ترفع رأسها نحوه، الدفء يسرى فى مسامها ... تشعر بأنها أمام برميل من البيرة ينبغى أن تتجرعه الي آخره لتكتشف ما بقعره .. لكنها قبل أن تتم البيرة العشرين تكون قد سقطت .. وفى الصباح تكتشف أنها مرة أخري لم تستطع أن تصل إلي قعر البرميل ..

تقول أمينة إنه كان يقدم لها الهدايا دائما ويعدها بالزواج وانها كانت تحب البيرة ولم يكن أحد غيره يملك أن يطفئ عطشها ...

أخذت أضحك .. كانت تتكلم بجدية مضحكة .. «أرغبه» .. انفجرت بالضحك ثانية .. نظرت إلىّ مستنكرة ... ثم سمعتها تقول:

ـ لا ... ليس كما تظنين .. إنه ليس شاذا .. لكنها ظاهرة شبه عامة بين هذا النوع من الرجال .. هكذا أسمع الناس يقولون.

السبت 29 / 12

سألتها إن كانت تحتفظ بلباس للخروج .. أجابت أنها تخفى فستانها وحذاءها فى كيس بلاستيكى تحت السرير فسألتها إن كانت تتحدث عن حذائها ذى الكعب قالت إنه ليس عاليا جدا وانها تستطيع أن تركض به ...

ـ أنت يا حلومة فى حاجة إلي حذاء بدون كعب، أحذية الكعب هذه صنعت لتتمايل الأرداف الثقيلة .. نحن سنقفز الجدار ...

الأحد 30 / 12

منتصف الليل، ماتت ميلودة.

الاثنين 31 / 12

كان الاتفاق أن نتسلل من أسرتنا بعد أن تنام النساء ونطمئن إلي نوم امّى غنّو ... هناك حفر كثيرة فى الجدار وحلومة قوية ... رغم المرض ... ستقفز أولا ثم تمد لى يدها ...

بالنسبة للحراس وممرضى الحراسة أفترض أن لا يكون هناك أحد ... فالليلة ليلة رأس السنة ومن العبث أن يهدى المرء ليلة مثلها للحكومة...

قالت أمينة لحلومة: «أنت تحنين للدعارة ... هذا كل ما فى الأمر...».

الساعة فى يدى تشير الي الثامنة والربع ... الأمسية الشعرية ستبدأ فى التاسعة ... أمى غنّو قامت بدوريتها الليلية المعتادة ثم انسحبت بخطي ثقيلة الي مخدعها .. أخذ يتناهي إلي سمعى شخير الدكالية ... أعلم أن العجوز «مى يامنة» فى الركن لا تنام .. لكنها لا تهتم لأمور «النائمات» فى الغالب.

أخرجت برفق حذائى وسروالى من تحت الوسادة ... ثم تسللت خارجا ... رأيت شبح حلومة أمام «صالتها» ترتدى حذاء أمينة ... تقدمت حلومة بهدوء وحذر من الجدار ... رفعت الكرسى القديم الذى تجلس عليه عادة مى غنّو وصعدت فوقه ثم تسلقت الجدار .. سمعتها تقفز من أعلي ... وقفت فوق الكرسى، قبضت جيدا بالحاشية .. نجحت يداى فى حملى إلي أعلي ... حلومة فى الأسفل ... تشير لى أن أقفز بسرعة ... بدت المسافة خيالية ... مستحيلة ... أغمضت عينى ... «إلي الحياة قدما» ... وقفزت...

لم يكن هناك حراس ... تماما كما خمّنا ... تسلقنا الباب الخارجى ... هذه المرة لم أجد صعوبة ... قفزت حلومة من بعدى ... وانطلقنا ... خارج المستشفي ...

سلمي مطر سيف

النشـــيد

قال جدى:

«سأذبحك كدابة الزريبة إن شاهدتك مرة أخري مع تلك المرأة الملعونة».

كان يضغط علي شطر رقبتى بقدمه الغليظة .. وكلما أمعن فى حدة تهديده زاد تغلغل قدمه فى لحمى. ابتعد تاركا جسمى ينبض كقلب كبير. كنت أشعر بأننى أتمدد وأنكمش كنبات صحراوى يتلظي تحت حريق الشمس.

اقتربت من أنفاس أمى وتطلعت إلي عينيها ووجهها «أيمنعنى لأنها امرأة سوداء؟» ..

قالت أمى:

«جدك يمقت الذى يخالفه. إن له فؤاد «نوخذا» يدفن غواصيه فى عمق البحر بقلب بارد ... آه أشك باستطاعته أن يتجاوب مع توجعك تحت قدمه .. لا تثيرى حنقه بالمرأة» ..

كنت أسائل نفسى عن سبب منعه إياى عن «دهمة» وقد لحظته، قد تبدلت أحواله لمجرد أن تسامع بأن «دهمة» سكنت بالجوار منا. أراه

معظم الوقت ساهما شاردا، ولا ينال إلا القليل من الزاد، وصار لا يخرج من البيت إلا لماما فأشاهده منطرحا علي جنبه والوجوم يسكن كل ملامح وجهه القاسية. وعند الفجر ـ فمن عادتى أن أقوم فى الليل عدة مرات ـ أسمع سعاله الذى يصل إلي سمعى مع دخان غليونه .. كنت أتيقن بأن أمرا يقلق جدى إلي درجة المرض والاصفرار. وهذا التبدل حل علي جدى مع قدوم المرأة فى فريجنا. وعندما علم بأننى زرت «دهمة»، هاج وانفجر فى وجه أمى وطرحنى علي الأرض يضربنى بقسوة شديدة تفصلنى عن أن أكون أحد جذوره الشرعية.

عاودت مرة أخري زيارة «دهمة» يسحبنى مقت جدى للمرأة، وقد تملكنى الاستغراب لأننى لم أر سوءا يبعث علي الخوف، فالمرأة كانت جميلة إلي درجة يخشي المرء أن يطيل النظر إليها، لها تكوين جسد جبار كأنه تكوين إلهة أسطورية .. آسرة كما تأسر الفاضلة الإنسان المقموع .. كفها واسعة إلي درجة تثير المفاجأة ورأسها يشبه تكوير رأس حمامة بيد أن ملامح وجهها تحمل سمة الصخر.

وعندما اقتربت منها، رأيت رقبتها السمراء مجدولة بضرب قاس كأنه لسع سياط لم تعرف الرأفة البشرية .. وخلال لقائى بها لم تكنّ تفارق صمتها إلا بحديث ابتسامة واسعة كانت تفتر بها بين الحين والآخر، فى حين كنت أتابع النظر الوحشى وبى لهيب أن تنطق المرأة ... وخرجت عنها وداخلى يموج بشعور ظامى صوب «دهمة» التى تفترس جدى.

ـ «أمى ما حكاية المرأة؟ ..».

أمى، هى الأخري كانت تجزع من سؤالى عن «دهمة» وتهرب هروب المستشيط بالنار.

- « ... أمى سأذهب إلي «دهمة» وليفعل بى جدى ما يشاء».

تناولت أمى يدى وأجلستنى لصفها وكان جسدها يرتجف كمن به حمي...

-«إن لهذه المرأة سمعة سيئة و ....».

ذهبت إلي «دهمة» وكانت عيناها مسكونة بغبش كأنه ركام غمام يراوح فى سمائه ولا يسقط مطره. تفحصت وجهها ويديها وصدرها وبقية جسدها، ولم يكن جسدها قابلا أن يستلقى ويمارس العهر، كنت أراها بشكلها الأسطورى المنتصب شبيهة بالشجرة التى تبتدع ذاتها .. آه إننى أشعر بأن عينى أمى تجافيان الصدق.

-« .. أمى ما حكاية المرأة؟ ...».

التهب وجه أمى بالصفرة القاسية، بلعت ريقها والتمست منى الرجاء.

- «لن يرحمك جدك ... كفى عن المرأة ...».

- «أمى سأسأل جدى عنها ...».

جأرت أمى قائلة وهى تسقط عينيها علي الأرض ...

- «إن المرأة التى تهمك ليست سوي سكيرة عربيدة .. انظرى إلي عيونها ...».

وعند الفجر لم يكتم حركتى الخوف من سلطة جدى وتسارعت لاهثة إلي المرأة وفزعت إليها وعينى تتجه إلي عيونها مخبولة .. رأيت الآثار التى تحدثت بها أمى، كانت عروق حمراء تملأ داخل محجريها.

ـ «... جدى لماذا تمنعنى عن «دهمة» ألأنها سوداء؟ إنها جميلة ... بدأت أحبها ...».

تناول جدى شعرى بين يديه وعمق الألم فى جلدة رأسى، إنها وسيلته الوحيدة فى التعامل معى.

«أنت عاصية ملعونة ... ورأسك هذا سأسحقه ... تسألين عن هذه العاهرة ... اسألى أيضا عن أبنائها السفاحين العشرة».

تحينت موعد خروج جدى إلي مجلس الرجال فى وسط سوق البلدة، وعجلت بالذهاب إلي المرأة .. لا أعلم السر الذى يفقدنى اتزانى صوب المرأة .. يقول جدى إن لها عشرة سفاحين. لكنها امرأة وحيدة ساكنة فى الصمت، وحولها يحوم سر يضربنى من أجله بقسوة ويعرضنى لرائحته عندما يثور. وما يدهشنى أن جدى يضعف عند ذكر تلك المرأة.

دخلت عليها ولم تكن وحيدة. كان بجانبها شاعر عجوز أعرفه جيدا أراه فى الطرقات والسكيك وأحيانا أسمع صوته فجرا ينشد بوجد. بحب كان مستريحا بجانبها مطمئنا. قلت فى دخليتى ربما هذا المجنون هو سر المرأة سأسأله .. قربتنى هى منها فجاءتنى رائحة منبعثة منها كأنها رائحة نخلة ... وعندما قربت ناظرى لم تكن فى موضع أن أحادثها أو ألتمس الرؤية عنها من الشاعر. وداخلنى الصمت فلم أنطق ... وكذلك الشاعر لم يزايد بحديث ... ومسحت هى علي صدرى دون أن تفتح حوارا ...

درت حول أمى ... وتوسلت ببكاء أن تقول لى شيئا عن «دهمة» ... انفلتت عنى أمى واتجهت صوب جدى ولم يكن موجودا ...

ـ «إنها امرأة مخبولة لا تملك رشيدا .. أمها لم تكن إلا معتوهة وكانت تخرج عارية فى الطرقات وتدخل البيوت وترفض أن تضع علي نفسها خرقة تستر ذاتها ... الناس هنا رجموها وضربوها ...».

ثم بحلقت أمى فى عينى وقالت ..

ـ «ثم وجدت مقتولة فى إحدي الخرائب ...».

وسكتت أمى ورأيت فى وجهها تجعدا خائفا .. وتلفتت إلىّ بنظرة حيوان جريح ..

ـ «لماذا جنت أمها؟».

ـ «الناس هنا ماتوا من الجوع .. والبحر لم يكن يوردهم إلا المأساة .. لذلك لجئوا إلي خدمهم السود. والكل فعل ذلك، الفقير والكبير .. وصاروا يبيعونهم بأبخس الأثمان .. أم «دهمة» سمعت بأن مالكها سيبيعها فقفلت علي نفسها الخيمة وبقيت يوما كاملا ملتحمة مع القلق والخوف .. إلي أن جنت ...».

ـ «لماذا يكره جدى «دهمة»؟».

ولم تجب أمى ... ربما «دهمة» صامتة بشكل أبدى علي أمها ... ربما هى محاصرة .. لكن بماذا ؟ شعرت بالحقد علي جدى .. وصرت لا أنام إلا فترة قصيرة وأتصدع طوال الليل مقابل جدار سينشرخ وينفرج عن وجه المرأة المعفر بالصمت وبابتسامة ليست هينة.

ذات فجر قربت «دهمة» رأسى من وجهها فتسللت إلىّ رائحة شبيهة برائحة التراب الذى أتي عليه الطل.

قالت لى : «لا تزعجى أمك المسكينة، جدك ليس رحيما».

وأصبح الصباح وأنا واقفة عند رأس جدى، قسماته لا تعدو إلا أن تكون قسمات نوخذا يمتهن المروق فوق أجساد الغواصين فتكبر ذاته بامتصاص دمائهم. لكن ما بال المرأة صامتة فى حين جدى يجاهر بكراهيتها، ولو درى بأننى لا أطيق الغياب عنها لنزع حرارة جسمى.

إننى أتملي بالمرأة، تجعلنى طافحة بالمعانى التى يحصلها الواردون علي صراط المعراج .. إن جدى يذبل مع الأيام فى وجود المرأة فى فريجنا.

ذات ليل، اكتمل فيه القمر وصار بدرا .. طرق المجنون علي نافذتى بعصاه، وأخرجنى معه إلي بيت المرأة .. ويا لهول ما رأيت، المرأة كانت فى أوج جمالها وقوتها، وجهها امتلأ بمزيج من الصلابة والسلام والألم القاسى. عيونها كانت صافية صفاء يفوق بريق نجمة أو صحراء تحت مظلة الليل. وقد أشعلت نارا فى وسط بيتها وهى لاتتواني أن تذكيها بقطع الحطب .. أف، لروعة حركتها، وهى تقترب من النار، أشبه بحركة راقص يزاوج بين الفرح والحزن والكلمات والمعانى وبين الصمت والكلام.

انتحي الشاعر بى مكانا قصيا وكان القمر بدرا وذاتى ممتلئة بشعور غامر فجمال «دهمة» يرهقنى ويكلفنى فرحا ثقيلا ورؤية نشيدية ..

- «من المرأة؟ لماذا يكرهها جدى؟ هل هى بغى؟».

مسح الشاعر علي جذعى:

«جنت أم المرأة وقتلها أهل البلدة لعريها. ودهمة بقيت عند مخدومها وكانت فتاة يافعة، وجمالها كما ترين يقتل الفاحش قبل السوى .. فكان يستر بالظلام ويأْوى إلي فراشها متعززا بشرعية أنه

المالك لها. وفى أول ليلة باعد بين ساقيها وربط كل ساق برجل السرير .. اعتاد علي ذلك ليال وهو يجهش باللذة الوحشية. وأدركت زوجته حقيقة الأمر عندما تكور بطن الفتاة .. فتشبعت بالحقد والقسوة علي «دهمة» .. أمرت الفتاة أن توقع نفسها من مكان عالٍ ليسقط الجنين، وضربتها علي رقبتها وبطنها .. لكن الجنين بقى فى تكوره .. فأطلقتها من الباب..».

نظرت إلي دهمة .. كانت لا تزال فى رشاقة انحنائها ونهوضها لسعر النار .. شاهدت طبلا بيدها.

«بقيت لوحدها فى خيمة من الجريد .. وكنت أجلب لها طعامها وولدت بعد حين .. سعدت «دهمة» وانتشت ورقصت، وكانت تطلق غناء شجيا عندما ترضع وليدها .. ومنعنى ذات يوم أن أجلب لها الطعام وخرجت هى باحثة عن عمل ...».

«وعندما رجعت ذات يوم بعد عملها وجدت طفلها مذبوحا ...».

بدأت تطرق علي طبلها طرقا خفيفا وما يلبث يتعالي والنار تتقافز كأنها طيور حمراء تختفى فى المدي ...

«بعد ابنها ضممتها إلىّ، وهى لم تعد تتكلم، كانت تصمت بشكل رهيب ... وفى أحد الصباحات نقلت خيمتها إلي عمق تواجد الناس فى البلدة .. ولم أدرك ماهية الأمر إلا عندما فقد رجال البلدة السيطرة علي أنفسهم فهاموا حول خيمتها كالذباب علي العسل».

كان وجه «دهمة» ممتلئا بإشعاعات القمر وبظل الليل. وقد ضمت الطبل إلي تجويف صدرها، وهى تضرب عليها ورأسها يعلو كما يعلو رأس الذبيحة عند قطع وريدها ...

«هام الأغنياء وفقدوا اتزان غريزتهم».

- «هل لها عشرة سفـ ...»

ـ «وكانت تنتقى الرجال. فإذا اندفع إليها أحدهم بقيت معه أياما متتاليات، حتي إذا شعرت بتكور بطنها أقفلت خيمتها علي نفسها وامتنعت عن الرجال ... فيظل الرجل يهيم ككلب حول الخيمة ..».

«وعندما تخرج وليدها يسمع فى البلدة دوى نشيد يتغلغل فى كل مكان ... فى البيوت والسكيك ويتسرب إلي فؤاد كل فرد فى البلدة ... ويظل النشيد إلي أن تنتهى المرأة من رضاع وليدها.. ثم تحمله إلي بيت أبيه .. والأب يستر ملامح وجهه فى حين الوليد يكون متخلقا بتلك الملامح واللون لون «دهمة» ... ويغدو الرجل كخرقة منقوعة فى ماء ..».

بدأت المرأة تنشد .. وتعالي صوتها كما يتعالي صوت ألم المرأة تحت وطأة المخاض ..

ـ «فعلت هذا مع عشرة رجال ..».

ـ «لها عشرة أبناء ..».

ـ «لها عشرات الأناشيد، إنها لا تنقطع عن النشيد والبلدة تصرخ. وقد أفصح أحد الرجال عن حقيقة ماجري له مع «دهمة» وكان يبكى كطفل ... إن «دهمة» كانت تستلقى وهى واقفة كشجرة يحضنها ليل موحش».

ـ «لماذا يكرهها جدى ..»؟

ـ «جدك أحدهم ..».

سلوي نعيمى

القيلولة

«مارأيك فى قيلولة؟» كان يسألنى وكنت أضحك فى كل مرة «نعم. وحدى» يدير وجهه خائبا، رافعا عينيه إلي السقف، مسترحما الملائكة والشياطين. أتابع الضحك. نبقي فى المكان المأهول، فى صالة الفندق، نرتشف الشاى والقهوة. تبقي رغبته تتقافز حولى. تسعدنى ولا تعنينى.

أمد إليه يدى وأفسح له مكانا علي السرير إلي جانبى. لماذا قلت نعم فى اليوم الأخير؟ جاءت وحدها. كان يمكن أن نفترق غدا حاملين طعم الرغبة المخنوقة موتا. لماذا قلت نعم فى اليوم الأخير؟ سبعة أيام لدراسة «المرأة العربية بين الاستقلال والتبعية» أرقام واحصائيات ونسب مئوية: العاملات والقاعدات، الأميات والمتعلمات، الفلاحات والمدنيات. أسئلة وأجوبة وكلمات كبيرة تثير الدوار. أتابع كتابة الملاحظات بدأب وهو إلي جانبى. كان سؤاله المتعثر وكانت هزة الرأس ونعم التى تسللت خلسة. غَصَّ كالملهوف يستعيدها: هل سمعت جيدا؟ أبتسم ولا أجيب. غضة مختلفة تتصاعد وتتهابط الآن متمايلة علي عنقه. يتحدث متشاغلا ولا يجرؤ علي الاقتراب «ما تزال المرأة عاجزة عن المشاركة الفعلية فى صنع القرار» مددت إليه يدى وأفسحت له مكانا الي جانبى. مددت إليه يدى وجاء إلىّ.

فى المرة الأولي قالها واعتبرتها نكتة. ضحكت وضحك معى. صارت محطة يومية تتوقف عندها كلمات ملتبسة توازى كلمات المؤتمر

الواضحة «لم يواكب التطور المادى تغيير جذرى فى مجال القيم الاجتماعية المتعلقة بالمرأة ... أدي غياب وعى المرأة نفسها بقضيتها إلي إصابتها بنوع من الفصام الذى يجعلها تتبني مفاهيم مضادة لحقوقها» كنت أري عينيه علىّ ويتوتر جسدى. قيلولة؟ سمعت الكثير وهذه جديدة. لم يقلها لى رجل من قبل، ولا حتي امرأة. كنت أري عينيه علىّ ويتوتر جسدى. هل يمكن أن تكون الرغبة معدية فى ضوء بعد الظهيرة المرمى بكسل وراء الستائر أستطيع تمييز عريّه الجميل وشيئا من الرضا علي الوجه الساكن المغمض العينين «مفهوم الرجولة يفرض علي الذكر فى مجتمعنا أن يمارس مختلف أنواع الخبرات الاجتماعية حتي المحظورة منها دون أن يستنكر عليه ذلك. أما إذا قامت المرأة بالأعمال نفسها ..» عيناى أنا مفتوحتان. أراه ولا يرانى.

$ $ $

كانت قيلولة أيضا فى «رجل وامرأة». عندما عرف أبى يومها أننى ذهبت لمشاهدة الفيلم صرخ فى وجه أمى: «مراهقة تري مشاهد كهذه ستفسد ...» هل فسدت؟ «الرجل المقموع يتحول فى بيته إلي قامع» ركضت أختى الصغيرة فى شوارع دمشق باحثة عنى علي باب سينما «الكندى» قبل أن تتلقفنى صفعات أبى. قلت متحدية: «ولِمَ لا؟ أنت أيضا شاهدته» وقحة. ارتفع صوته وطارت منفضة السجائر لتصفر أمام عينى قبل أن تحط شظايا تلملمها أمى مستعيذة بأنبيائها «كلما كانت الأم خاضعة مسلوبة الإرادة ازدادت رغبة الابنة فى السير فى الطريق المعاكسة» كانت قيلولة. تخطر لى الفكرة للمرة الأولي بعد هذه السنوات كلها.

الرجل والمرأة يتناولان طعام الغداء فى مطعم، ثم يصعدان إلي غرفة فى فندق. أبى الذى لم يتحمل رؤية فيلم فى حياته شاهد مرات

الفيلم الفرنسى الذى كان حديث مدينتنا. البطلة أرملة لم تقرب رجلا منذ موت زوجها. ابتسمت فى سرى وحمدت ربى أننى لست. أسمع همساته «ما كنت أظن أن هناك امرأة ساخنة إلي هذا الحد!» يتحسس جسدى الملتهب بالرغبة وهو ما أريده أن يفعله. أعرف أنى حارة وناعمة: «المرأة كائن ذاتى لا يملك القدرة علي تجاوز الذات إلي المجتمع» يقترب أكثر وألتصق به أكثر. نتداخل وإيقاعات جسدينا ما تزال هادئة «عمل المرأة داخل البيت وخارجه يؤدى إلي إصابتها بالإرهاق» اللمسة تمتد والقبلة تطول والمرة الأولي تبدأ اجتياحاتها.

$ $ $

منذ سبعة أيام وهو إلي جانبى. لم نكن وحدنا. المشاركون كثيرون فى «تاريخ المرأة العربية والظروف التى أدت إلي حرمانها من المشاركة فى الإبداع الحضارى». لقاءات عابرة فى مؤتمرات عابرة. لاحظت انتباهه منذ البداية ولم يكن هذا يعنينى. أعرف أن رغبتى لا تبدأ إلا منى. لماذا هو الآن، دون غيره، إلي جانبى فى هذا العناق المتوحد؟ السؤال الأزلى عند كل بداية. الجسد هو الذى يقرر؟ «وما طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وما هى العوامل التى تتحكم فيها؟» فى زمن مضي كان هناك من يعيد علىّ حديث كيمياء الأجساد وتناغماتها. كنت ألتصق به وهو يصف دهشا قدرتى علي التغلغل. التغلغل فى ماذا؟ ربك وحده يعلم. كانت كلماته تبقي عالقة فى مصيدة رأسى وكنت أتلمظ بها فى خلوتى «المرأة لا تطلب مباشرة ما تريد ولا تدافع عن معتقداتها، وبخاصة إذا ما تطلب منها هذا دحض آراء الآخرين وإظهار مقدراتها الفكرية» ماذا سيتجلي من قدراتى الآن وكيميائى العملية تتوهج فى الرجل، فى هذا السرير، فى هذه الغرفة، فى هذا الفندق، فى هذه المدينة، فى هذا البلد، بعيدا عن حياتى؟

$ $ $

كانوا جميعا يرقصون فى قاعة الفندق. هذا الفندق الذى سيحتضن فى الأسبوع القادم مؤتمرا لوزراء الداخلية العرب، وقد يناقشون، هم أيضا، حقى فى القيلولة. جري الإيقاع فى دمى ورددت «ما تزال المرأة العربية خاضعة للظروف الاجتماعية ... نمرّ بفترة انتقالية حرجة تتيح للمرأة فرصا ومسئوليات لم تؤهل لعيشها وهى لذلك فى حالة خوف دائم» الرقص فرصة أم مسئولية؟ مازلت أخاف جسدى. أحمله عبئا علي عبء. أعرض وأستعرض بعض بعضه بغواية وأخفى الباقى بحرص. ترددت وشدنى بإصرار. وقوفا تقابلنا. لا ألمسه ولا يلمسنى. إيقاع الجسد وحده يربط بيننا. يقترب بوجهه منى. أحس الخطر فأضحك وأبتعد. شعرى ينوس مع حركاتى وعيناه تتابعاننى. فى لحظة ما أمسك بيدى: لنخرج. تفلّتّ وتابعت الرقص، تابعت اللعب. قالت الصديقة: «أنت امرأة طفلة لا تذهب إلي نهايات أفكارها» ماذا تعرف هى عن البدايات والنهايات؟ ماذا تعرف هى عن صباحات ومساءات وأجساد ومذاقات وعطور صبت فى بهائى؟ إيقاع الجسدين يربط بيننا الآن ولكنه ليس وحده، وعندما يقترب بوجهه منى تبدأ شفتاى فى التدور البليل. القبلة لا تنتهى وأغمض عينى. أستعيدها غزيرة، أستعيدها واحدة. أستعيدها ويسقط دمى المباح.

$ $ $

«كنا فى السوق القديمة» ترفع الصديقة شعرها عن غنيمتها: طويلة المهوي والقرُط فضة مطعمة بأحجار صغيرة توسوس عند كل حركة. كانت أذناى عاريتين كالعادة «لماذا لا تضعين العقود والأساور والخواتم» تسألنى أختى وأتحايل فى الإجابة «المرأة العربية ليست نسيجا متشابها، وهموم المرأة الريفية تختلف عن هموم ..» عندما كتبت، أيام

الجامعة، قصيدة حب قالوا هذه كلمات امرأة لا هم لها. هو أيضا سأل، وبحركة تمثيلية لم يناقشها المؤتمر أعلنت: «لست بحاجة إلي إضافات أنثوية» فهم المكر وأجابت نظراته جوالة كقبلات متأنية علي الوجه، علي العينين، علي الشفة السفلي، علي الثديين وأهرب إلي حكايات الصديقة ومشترياتها. فى العتمة الشفافة تنتقل قبلاته متأنية علي المفضوح منى والسرى. أغمض عينى من جديد سابحة خلف مويجاتى: تتعاقد فى داخلى، تتشابك ثم تتصاغر، أبعد أبعد، قبل أن تتفتح نقطة نور تنداح «لا تعبر المرأة العربية عن تجاربها خوفا من أحكام المجتمع الأخلاقية التى لا تفصل بين الحياة الخاصة والعمل الفنى» لست بحاجة أن أفتح عينى كى أراه. أعرف أنه هنا، مختلطا برائحة اللذة.

ليانة بدر

ألوان

كانت الطفلة مأخوذة بالألوان التى تسيل من أصابع أمها الممسكة بفرشاة الرسم. كل يوم. كل فجر. تستيقظ زوجة الطبيب فى البلدة الريفية. تنفض النوم عن جفنيها العابقين بغبار طلع النخيل وذرات زهر النارنج. وتتذمر من الحساسية التى تسببها أشياء الطبيعة الدقيقة. تنهض والغبش يظلل السماوات. وتمشى إلي لوحتها قبل أن تشرب قهوة الصباح، ودون أن تلقى نظرة علي النائمين من أهل البيت. تهب إلي الرسم المعلق علي مسند خشبى فى غرفة استقبال المرضي. تتخذ أمام الشباك مكانا مواجها للجبل الصخرى ذى اللون الوردى. وتأخذ فى حياكة تفاصيله علي القماش المشدود بصبر متعلل لا يفهم معناه إلا من عرف بمرضها العضال الذى لن يمهلها زمنا طويلا.

تتعجب الطفلة من ألوان أمها. كيف تنفرش علي القماشة، تتجسم، ثم تتخلق بين أحضان الجبل الراسخ شيئا فشيئا. بلدة ذات بيوت من الطين واللبن. أسطحتها من قرميد، وأرضياتها من خشب. تحيطها البساتين والبيارات. أرضها خضراء محروثة بالريح. تخترقها قنوات الماء السارية بين الحقول، وينبعث منها أريج عشبى مختلط بالنعناع البرى.

تتساءل الطفلة وهى ترتدى زيها المدرسى، أو تشرب كأس الحليب الصباحى رغما عنها: كيف تستطيع الأم أن تجسد البلدة داخل الرسم

رغم قضبان النافذة المتصالبة التى تحتجز النظر؟

كانت الأم تحرك يدها بأناة تذوب تدريجيا مع عجالة طلوع الشمس، والتحسب من الحضور المبكر لمرضي العيادة. تسحب بعدها حامل اللوحة، ومعاجين الألوان، والفراشى المرنَّخة بالتربنتين. وتترك خلفها علي القماش تأوُّد شجرة المطاط الضخمة فى حاكورة الدار، اصطفاق سعف النخلة التى تحتاج إلي سلمين لتسلقها، وبقايا زقزقات العصافير علي صحن الوضوء فى فناء الجامع القريب.

تحمل الطفلة حقيبة وتسأل نفسها طوال الطريق متعجبة من أمها. ففى المدرسة طلبت منها المعلمة رسم حبة باذنجان، فتثاقلت أصابعها وتجمدت علي الكتلة الثقيلة. نقمت علي الحبة البدينة ذا ت المعطف الكحلى المائل إلي السواد، والطاقية الخضراء التى أمست دائرة فحم قاتم علي الورق. وازدادت مغاليق دهشتها أمام اللوحة تنبث فيها تدرجات الليلكى لونا لونا تماما مثل الصخور الجرانيتية لجبل «قرنطل» المواجه. قضي الشيطان فى كهوفه أربعين يوما يجرب نقاء ضمير عيسي المسيح، فلما فشل هوي إلي سفحه، وتحول إلي حبة ملح. أربعون يوما لتجربة المسيح الشاب. لعل المرأة أنجزت صورة «أريحا» خلال أربعين يوما. ربما أكثر، وربما أقل!

لا أعرف!

عام 1967. أمى. زوجة طبيب البلدة الريفية لم تكن هناك. لم تعش كى تنحشر بين الركاب الكثيرين فى السيارة الصغيرة التى عبرت الجسر الي الضفة الشرقية من النهر. عاد الطبيب مخذولا، بعدما ذهب لمناوبة طارئة إلي المستشفي. فوجئ بالممرات الفارغة، والسرر الخاوية. لم يكن أحد هناك. حتي سائق عربة الإسعاف حمل عائلته وغادر فى سيارة المستشفي الحكومى. ذهب الأب إلي المخفر كى يطلب

سلاحا، فلم يجد سوي غرف السجن الخاوية والسلاسل المعدنية المكومة قرب الباب. شاهد رتلا من الدبابات يسير مسرعا باتجاه معاكس للجبهة. عندما اعترض الطريق مناديا الذين احتجبوا داخل الآليات المعدنية، أوشكت احداها علي دهسه. رضخ آنذاك لتنبؤات صديقه الملتحى عن ساعة الدمار الآتية « لا ريب فيها ». ألقي بأولاده وبعض الجيران فى السيارة الخنفسائية الرمادية اللون، ويمم باتجاه الجسر شرق النهر.

الجسور الصغيرة. النابالم. رائحته المحترقة كالقار الأسفلتى يرصفون به الطرق. والطائرات ذات السواد المعدنى تدك الأجساد المتراكضة لمئات وآلاف النازحين من مخيمات اللاجئين المحيطة بأريحا. أجساد مرمية علي الطرقات، وأقدام مسرعة تدوسها هلعا أثناء هرولتها صوب الأمان. جنون هستيرى لا يدرك أبعاده إلا من سمع الإشاعات عن تمثيل الغزاة القادمين بمن سوف يظفرون بهم. نابالم. وما أدراك ما رائحة النابالم.

زفت مغلى يفور علي وجوه البشر ، أعضائهم ، وجلودهم المسودة.

هناك. هنا.

هنا. أو هناك.

لم يعد ثمة هنا أو هناك.

فقط. إنهم لن يرجعوا. قال الغزاة.

عام. اثنان. عشرة.

فى الأراضى البعيدة التى تجولت الفتاة فيها حتي الدوخة فيما بعد

، لم تشهد شجرا ولا سماء تشابه بلدتها الأولي.

مرت أيام ، وعبرت نهارات إلي أن حطت فى مدينة محيرة. بناياتها عالية ، وزجاجها صقيل ، وشوارعها عريضة. اسمها بيروت.

فى بيروت تعرفت إلي الفيروز مذابا فى ماء البحر. حاولت دون كلل تذكر تعدداته التى كان عليها فى المرة الأخيرة التى تركته فيها. من ذا الذى يستطيع أن يحفظ تموجاته فى الأوقات العادية ، فكيف إذا أمست الليالى بروقا صخابة من القذائف ، والايام أمواجا تردد القصف علي الجدران والأزقة. حتي فى ليلة رأس السنة لم تتوقف القذائف المشتعلة عن الهطول كزخ الأمطار. تبرقشت صفحة السماء بكريات «هاون » ذات لهب أحمر أطلقها مسلحون كى يعلنوا فرحهم بالعام الجديد.

لم يكن من منفذ سوي اشتمام رائحة البحر المسربلة فى غيوم الرطوبة التى تتسكع فوق الشاطئ. تذهب إلي سكة الحديد التى كانت توصل إلي يافا وحيفا ، وتمشى فوقها بعد أن كفت القطارات عن ورودها ، تستنشق رائحة الأحجار. أحجار تشبه بيض الرخ. صفائح المدفعية. عيون الديناصورات. أو تماثيل صخرية نحتتها الطبيعة وفق أسلوب المدارس الحديثة منذ آلاف السنين.

حضر ابن عمها من الأرض المحتلة يوما. دخل المطبخ ، ورآها تعود من عملها فى الأرشيف علي « خط التماس » منهكة لشدة ما احتمت بمداخل البنايات توقيا للقذائف علي طريق رجوعها. دخل إلي المطبخ ، وأعد « ربيعية الفول » هل تذكرين؟ نظرت إلي حبات الفول الخضراء اليانعة متوهجة بالبخار الشهى الطالع منها ، وقالت : لا. لم أتذكرها إلا الآن. واكتشفت انها نسيت مذاق الأكل البيتى فى مدينة عجلة الصواريخ هذه حيث يكتفى المرء بسندويش أو طعام عابر. وفى لمسة لم

يقم بها أحد معها منذ أن سكنت المدينة ، سألها :

ـ ما هى الهدية التى تتمنين أن أجلبها لك ؟

وجريا علي عادة الأعمام والأهل القريبين فى وطنها كان يفترض أن يقدم هدية لها تقوم هى باختيارها . صفنت. ونظرت فى أعماق روحها . وأعربت : أريد عصفورا . كنارى بلون أصفر ذهبى.

كانت قد تعودت علي زقزقات العصافير فى الفجر حينما كانت تأرق بعد ليال من التراشق المدفعى. تعجز عن النوم لشدة جنون القلق. ولا تنام إلاعلي أصوات جوقات العصافير المستيقظة توا . حينها كانت تكتشف أن المدينة تشبه شجرة البلّوط الهائلة فى فناء الساحة القريبة من بيتهم فى أريحا . تضم مئات وآلاف العصافير التى لا ينتبه إلي وجودها أحد إلا حين يعم الصمت الشامل. ولم يكن هناك هدوء إلا لحظات شقشقة الصباح الأولي.

عاد ابن عمها وفى فمه وعد مكين بأن يبعث لها صورة أريحا التى رسمتها الأم.

صار افتتاح الصباح تغريد الكنارى يعم أرجاء البيت. يصدح صوته مع الخيوط الفضية الأولي للضوء محولا نسيج الشمس المنهمر إلي سجاجيد موشاة بزنابق ذهبية.

لكن الكنارى المغرد صار بحاجة أيضا إلي عائلة. جلبت له أنثي برتقالية الريش ما لبثت أن جلست علي خمس بيضات.

أربع. ثم خمس. ثم !

من جديد !!

ولا يفقس البيض أبدا !!

ذهبت لتسأل فأخبروها أنه فى ذلك العام ، ربيع 1981 فى بيروت ، عجزت مئات الكنارى عن التفريخ بسبب شدة القصف وتتابعه.

فوجئت. كانت أصوات الحرب قد تحولت إلي ضجيج أعمي من صميم المكان. ما عاد أحد يتساءل عن القذيفة أو لونها أو حجمها إن لم تسقط علي الشارع الذى يكون فيه شخصيا. كانت القذائف تعيش حياتها الخاصة أفضل مما يتاح للناس. وكانت فرص الحياة تبدو جميلة إلي درجة أن لقاءات الصدفة للمعارف فى الشوارع اعتبرت فرصا سارة تنوب عن زيارات البيوت. لم تعد هناك سهرات ولا زيارات فى ذلك العام الذى تكاثرت فيه السيارات المفخخة وتزايدت مثل الفطْر بعد المطر.

لم تعد هناك سوي كوابيس متتابعة من انهيارات البنايات والمكاتب والبيوت والعمارات علي رؤوس الناس. وعندما عجز الأطفال عن النزول إلي الرصيف القريب لركوب الدراجة أو التمشى لشراء قطعة حلوي من الدكان ، صار لزاما الاعتناء بالكنارى كى يفقس ويلتهى الأولاد.

إثر مناقشة الاقتراحات علي سلم البناية مع الجارات أثناء نوبات القصف العشوائى الآتية من المنطقة الشرقية ، بعث بأنثي الكنارى إلي بناية قريبة لدي كشاش حمام كان خبيرا بالعصافير ليتم مشروع زواج جديد يعطى نتائج مجربة. وهكذا كان.

قبل أن تحين الزيارة الأولي لعائلة الكنارى التى أثمرت بيوضا بدأت فى التفقيس ، حضرت إحدي القريبات من فلسطين وبيدها اللوحة

بعد غياب خمسة عشر عاما. كانت أجنحة الطيور تحلق فى فضاء أريحا. وخيوط الدوالى الغضة تتسلق حافة الطريق. والنمل يسير فى طوابير تحت أشجار الدخان بثمارها البوقية البيضاء. وكباشيل الذرة علي حالها مثل مراوح قشية بلهاء. أما غصون الأشجار فكانت تتمايل مختلطة بطعم الريح ورائحة المياه الجوفية التى تصب فى البستان.

كل صباح كانت تبادر إلي التحديق بها قبل أن تنصرف إلي شؤون يومها. تفتح عينيها وهى تجتذب نفسها من كوابيس الليل الناشئة عن انقطاع الكهرباء المستديم. تسترد الرجع البعيد للقصف الأرضى محاولة الإنصات بكل طاقتها إلي دبيب محركات الطائرات الحربية المنشغلة بغاراتها الوهمية فى أجواء المدينة. تتصاعد إليها من الشرفة النداءات المنغمة للباعة المتجولين بعبير خضراوات طازجة، مع رائحة زيت الأسلحة وأكوام النفايات التى تكاثرت بفعل الإضرابات المتواصلة لعمال البلدية. كان جسمها ينحل آنذاك إلي ذرات نورانية دقيقة من الرغبة القاسية فى الدخول إلي فضاء اللوحة. تغمض عينيها. تمس أطراف العليق التى حذرتها الجدات من لمسها علي طرف الغدير. وتتشبع برائحة العبهر الطائش علي أسيجة البلدة الريفية. ثم. تعود إلي حيث هى.

فى ذلك اليوم الموعود الذى حان فيه استرداد عائلة الكنارى، لم يعد هنالك كنارى، ولا فراخ، ولا أناس أصلا. انقض سرب طيران إسرائيلى علي سلسلة بنايات فى تموُّز من ذلك العام. وفى جحيم العويل والتعازى لأولئك النساء اللواتى صرن أرامل، ولأطفال الجيران الذين صاروا معوقين أو مشلولين، وأفواج الهائمين علي وجوههم لفقدان أب أو أخ أو صديق. كان ما يقرض دخيلتها مثل فأر متوحش هو ما يمكن أن تقنع به الأطفال عما جري لعائلة الكنارى الحديثة العهد. عرف الأطفال بالخسارات الحميمة إلا العصافير. كيف يمكن للمرء أن يخبر

أطفالا عن طيور كنارى تقتلها غارة؟

ضاقت مساحة السماء بين أكياس الرمل المصففة علي الأرصفة، وبين هضاب السواتر الرملية التى اصطنعت للوقاية من القصف. صار الرعب دخانا أسود يتجول فى الأزقة والطرقات ومداخل البنايات. تقلصت حدود المدينة باتجاه البحر، ولم يعد هناك سوي الكورنيش الذى غزته أفواج البشر لتنشق نسمة صيفية أو اغتراف حفنة دفء فى الشتاء. وانتقلت أسواق المدينة إلي رصيف الروشة داخل خيام قماشية تتسع زواياها الضيقة للمطربين الجدد بأصواتهم المندلقة من بسطات التسجيلات. كلام دون معني. وموسيقي «أى كلام». ذهبت مع صديقتها اللبنانية إلي خيمة تضم بسطات تبيع شتي الحاجات. التقطت ملوِّن الجفون. جربته، ثم سألت صديقتها:

- الظل البنى أفضل أم الفضى؟

أجابتها:

- البنى يعطى عمقا أكبر، الا ان الفضى يلتمع بالفرح علي عينيك الحزينتين.

لم تلحق أن تختار البنى أو الفضى. هدرت سيارات الإطفائية باتجاه شارع قريب تردد أن عبوة علي وشك الانفجار قد اكتشفت فى أحد شقوقه. هربتا، قبل أن يعم الدخان الأسود المكان.

عرفت أنها غادرت بيروت نهائيا عندما أرهقها غبار المدينة العربية الجديدة التى أجبرت علي الرحيل إليها إثر الاجتياح الإسرائيلى للبنان عام 1982. هناك، وهى تعانى من خسران كل ما عرفته قبلا، من افتقاد الناس، وأصوات الجيران، انحناءات الشوارع، وشقوق الأرصفة

التى حفظتها غيبا، من اختلاف طعم الهواء، وروائح الأشياء، وألوان حر الظهيرة، بعثت لصديقتها اللبنانية تطلب إرسال القليل من أغراضها التى بقيت فى البيت. ذلك الرسم الذى ترك علي حائط غرفة دمرت القنابل الجزء الأعظم من أرضيتها. بعد ستة أشهر استطاعت الصديقة أن تجمع لها بعض الصور الشخصية، وأن ترسلها مع شال قديم مطرز بطيور الجنة، ورسم الأم.

انتظرت الفتاة بصبر بالغ قدوم أغراضها. ولدهشتها الشديدة وصلت جميعا عدا الرسم. تقصت الأمر فعرفت أن سائق السيارة توقف بضع دقائق أمام مكتب أحد التنظيمات فى البقاع لتسليم بعض الحاجيات، فلم تدرك إن كان سبب ضياع اللوحة مروره بالمكتب العسكرى، وتقديمه إياها هدية لبعض من يريد كسب ودهم، أم أن أحدهم أعجب بها كما حدث لذلك المقاتل الذى أصر علي مصادرة صور بجعات ذهبية من صديقتها عند انتقالها من حى إلي آخر! قد تكون حواجز الحدود التى تطاولت وامتدت هى السبب! أخبرها بعض المسافرين أنها أقيمت خصيصا لمنع التهريب لكنها تغض الطرف عن السائقين الذين يقدمون عطايا وهبات. أيكون السائق اشتري صمت حرس الحدود بتلك اللوحة؟

لم تنجح فى العثور علي السائق. ولم يتح لها أبدا معرفة مكان اللوحة. فكرت أن تنشر إعلانا تشرح فيه لمن أخذها أهمية الذكري الشخصية الوحيدة التى تبقت لها من أمها الراحلة. لكنها سرعان ما عدلت عن الموضوع. فعلي أية جريدة سوف تضمن أن يطلع الشخص المقصود؟ ثم من الذى يجرؤ علي الحديث عن خساراته فى هذه الأيام؟

لم تدرك كيف ينقلب الأزرق إلي لون رصاصى قاتم إلا حينما ركبت السفينة التى خرجت بها من لبنان للمرة الثانية كى تذهب إلي البلد

المتوسطى فى شمال أفريقيا. انزلقت الباخرة علي المياه الزيتية الثقيلة، ودخلت اقليما من تدرجات الليل. كان شىء يومض فى روحها ويلتمع مثل البرق الخاطف علي نصل سكين. كانت السكين تقطع حبل السرة الذى يربطها بآسيا. آسيا الحميمة القريبة مثل عش مهما ابتعدت وسطها المسافات. خرير المياه المتلاطم حول رفاصات السفينة لا يزال يطن فى أذنها. دوار الدوخة الهائجة يموج فى جوفها. لم تكن تدرى ما الذى سوف تفعله عبر رمال المياه هذه. كأنها كانت فى واحة ثم انتقلت إلي هضاب رملية متنقلة لا تكف عن الحركة.

فى البلد الجديد الذى استقرت فيه صار حنينها أشد وأمضي. لم تستطع ارتشاف الهواء علي جرى عادتها بتمهل واستغراق.

حوّمت الظلال مثل فراشات عملاقة لشدة الوهج الذى تبثه شمس عمودية. وهى التى لم تدرِ أبدا ما الذى يمكن لها أن تفعله فى بلد السفر الجديد هذا، لم تكن تعرف التطريز مثل جداتها اللواتى قضين السنين وهن يطرزن مواسم حصاد وقطوف عنب علي قماش ثيابهن. من الصعب، بل، من المستحيل. أن! منذ طفولتها والمعلمة تقرص أذنها وتشهر بها كلما أطلعت علي الباذنجانة المعوجة التى ترسمها، أو إصبع الموز الذى تحوله أناملها المرتعشة إلي قلامة ظفر ملقي علي أرض مهملة. لم تدرِ ماذا تصنع بيديها المنعقدتين إلي جانبها بضيق وتصلب. كان الشارع فىَ مواجهتها فارغا تماما. لا يعرف إلا خطوات قليلة لموظفين قلائل فى ساعات الدوام الرسمى. لم يكن هناك جارات تتداري من القصف معهن علي السلالم، أو ربات بيوت يتقاسمن معا الأرغفة القليلة أثناء الأزمة التموينية ويتشاركن فى قسائم السكر والشاى الهزيلة التى تنعم بها الدولة علي مواطنيها. هنا. لا شىء، سوي الصمت. فماذا تعمل كلما أنهت عملها وداهمها فراغ قاتل؟ العصافير! أحضرت للأطفال عصافير من جديد. لكنها لن تكون أبدا

كتلك التى غيبها دخان القذائف الفراغية. ماذا تفعل إذن؟

فتشت الدار. وجدت ألوانا ودفاتر رسم مدرسية. انتزعت ورقة. وقفت وراء قضبان النافذة المزخرفة بزركشة أندلسية. تعجبت. هل ترسم المنظر بقضبان حديدية أم بدون قضبان! كان فى مواجهتها بيت له شرفات خشبية منقوشة، وطلاء أبيض مع نوافذ زرقاء. تعجبت المرأة. ما الذى تفعله أصابعها المترجرجة الخائرة علي الورقة البيضاء المفتوحة الفم وكأنها علي وشك التهام يدها؟ ما الذى ترسمه يدها الغاطسة وسط ألوان متنافرة؟

ظلت ترسم. وترسم. تريد أن تنهى ما ابتدأت به لتري ما تفعله يدها.

لم أصدق. لم تصدق الطفلة التى خرجت ذات يوم عن طريق جسر خشبى كسرته غارات همجية. لم تصدق الفتاة، المرأة التى رنحتها دفّات مراكب عجولة علي سطوح مياه عابرة بين القارات، ما تكشفت عنه الألوان لاحقا. وما شكلته الحمية الفائرة التى غمرتها حتي أتمت اللوحة.

كانت بلدة ريفية تتخلق بين الأشجار. بيوتها من الطين واللبن. أسطحتها من القرميد، وأرضياتها من خشب. تحيطها البيارات والبساتين. أرضها حمراء محروثة بالريح. ومنها ينبعث أريج عشبى لا يوجد إلا هناك.

سهام بيومى

الطائر الأزرق

من تلك الفرجة المستطيلة بين أبنية متفاوتة الارتفاع، تنتهى بأزقة ضيقة ملتوية ومنازل متآكلة الزوايا، يتساند بعضها علي البعض الآخر، تأخذ طريقها إلي البحر، حيث يبدو بامتداده، الشاسع وصفحته المجعدة اللامعة التى تكتنفها ظلال واهية تضيق وتتسع تباعا مع حركة الموج .. تتكسر الأمواج علي الشاطئ، مخلفة ما انفصل من الأعماق، من قواقع وأصداف ورمال وأعشاب بحرية.

تسير بمحاذاة المياه ممسكة نعلها ولفافتها، تغمر المياه ساقيها فتعرج إلي الشاطئ، تلتصق بساقيها المبللتين طبقة كثيفة من الرمال، تجلس وتزيحها جانبا، تردد بصوت خافت: خوليو .. خوليوس .. خليل .. خاخا .. خاااه..

يرتفع صوتها، فتنظر حولها فى الشاطئ الخالى، تلتقط قوقعا صغيرا ، تنفض الرمال عنه وتتأمل الخيوط الزرقاء المتعرجة التى تلفه، تقربه من أذنها، تسمع وشيش البحر وترددات الموج مرتكزا إلي نقطة لا تعرف مداها داخل تلافيف القواقع، تضعه فى سلتها وتواصل السير. تتناهي إليها صفارات البواخر العابرة منغمة ومتقطعة ترهف السمع وهى تضم اللفافة إليها.

تغيب الرؤي للحظة ويطالعها وجه خوليوس بعينيه المتسعتين دهشة،

وهى تحاول أن تتابع إيحاءته وحركة أصابعه، وكلماته التى يضغط حروفها. تتعلق عيناها بسرب النوارس المحلقة، حين ينفصل أحدها عن السرب، منقضا علي صفحة المياه فى حركة دائرية، ثم يواصل صعوده الدائرى، ملتحما بالسرب الذى يواصل التحليق.

تتخلل أصابعها المربعات الصغيرة فى السور السلكى للميناء، تجول عيناها وسط زحام البشر والفلائك والبواخر، والحبال الصاعدة والهابطة محملة بالبضائع. وتتأمل الملامح حين يخيل إليها وسط الزحام.

فى ساحة الحى تفرش رقعتها بجوار دكان سالم، وترقب المارة فى الساحة وهم يتلكئون عند الدكان ليتبادلوا الحديث مع سالم ومعها، ومع حلول المساء يتوافد الرجال قادمين من الميناء.

تنتبه لوجود البرنس، يتحدث إلي سالم وهو ينظر إليها.

ـ التقي خوليوس بجماعة من بلده، لم يفارقهم منذ الصباح.

يأتى سالم بكرسيين من الداخل ويقول وهما يجلسان: كأنه عاش بيننا زمنا.

ـ وهل غبت أنا زمنا؟!

يتناول البرنس قوقعا ، يهمس له ويناوله لها، ويتابع خطوط أصابعها المتماوجة علي الرمال.

ـ البحر يناديك.

ـ والبر؟

- البر غير البحر يا برنس.

خوليوس قال لها ذلك وهو يحدثها عن البحر والشواطئ البعيدة، وهى مشدودة إلي أحاديثه وإشارات يديه، تبتسم حين تكتمل الصورة فى مخيلتها وهو يحدثها عن تلك الجزيرة الصغيرة التى رفعتها الأمواج من أعماق البحر، ثم انحسرت عنها تاركة إياها علي صفحة المياه، فاحتفظت بآثار الموج علي سطحها المحدب حيث تبدو للقادم من بعيد كمتن حيوان أسطورى، يكاد حين يقترب منها أن يتلقفها بين ذراعيه، وهى تبدو طافية مع حركة الأمواج. كان يرفع يديه المنبسطتين دفعة واحدة، كأنما ينتشلها لتوه من صفحة المياه حكي لها عن أسراب الطيور البحرية التى تلوذ بها تلمسا للدفء فى مواسم الهجرات، ومراحات الأسماك الغريبة فى شواطئها، وعن مواسم الصيد حين تمتلئ خلجانها بالقوارب واليخوت، وتزدحم طرقاتها بمزيج من البشر ذوى الملامح المتباينة، وعن أيامه التى أمضاها هناك، والتذكارات التى اقتناها، كما حدثها عن السفر علي البواخر العابرة، والمرافئ والمدائن البعيدة، يدور حول نفسه حتي تنغرس قدمه فى الرمل، ويخطو بالأخري وهو يلتفت إليها قائلا : هنا الأرض المنبسطة تتسع لخطوى.

تلتقى عيناها بعينى البرنس، تزيح جانبا الحلية المتدلية من رباط رأسها، وتتأمل تلك الخطوط المنسربة إلي جبهته.

- والزمن؟ لى أم علىّ؟

- زمانك حصانك؟

يضحك سالم قائلا : تعود بجيوبك محشوة، فتقول: سترحل من أجل المزيد، وتعود بجيوبك خاوية، فتقول: سترحل لتعوض ما فات.

عاد البرنس بصناديق البضائع وجيوب محشوة بالعملات، اكتظ دكان سالم بالبضائع، وفاضت أكشاك الحى، تحلق الرجال حوله، ونشطت حركتهم فى شوارع الحى. قطعت «زهرة» الطرقات، وطرقت الأبواب تبيع النسوة القمصان المطرزة وقماش الأثواب، وأغطية الرأس، ولعب الأطفال، وهى تقرأ لهن الطالع، وتتهدج الألسن بمكنون النفوس، وهى تحكى عن المقدر والمكتوب والمأمول والمحظور، عن مصائر الرجال فى البحر، وما تجود به الأيام .... لكنها لم تستطع أن تعرف، هى ضاربة الودع، بماذا وشوش لها القوقع عن دبيب القلب، ولواعج النفس.

عاد البرنس ومعه خوليوس.

ـ أخى الذى لم تنجبه أمى، ولم ينجبه أبى.

كان يتأملهم بوجه باسم، يتبادل مع البرنس كلمات قليلة، وينظر كل منهما للآخر، تنتقل بينهم حركة الشفتين وخلجات الوجه مع إشارات الأيدى، اختلطت مفردات البيع والشراء، بالحديث عن البحر، ومدن الشمال.

ـ وها هى زهرة.

تنثنى جانبا وهى تنظر إليه.

ـ أخذك البحر واستهوتك أرض الغير.

ـ لا أري البر إلا حين أراك يا زهرة.

ـ لم تعد بعد يا برنس.

كانت أنوار الكلوبات الساطعة تبدد ظلمة الليل فى قلب الساحة،

وتتألق علي الوجوه والملامح المنبسطة، تجمعوا حول البرنس وخوليوس، افترشت النسوة جوانب الطرقات، وتجمعن فى النوافذ والشرفات، كف الصخب، وانعقدت الصحبة فانسابت الألحان، كان خوليوس يهز رأسه طربا مع الأغانى والأدوار القديمة. وفى الفواصل بين الأغنيات تدور أكواب الشاى، وتتصاعد حلقات الدخان.

أخذ الإيقاع يتسارع مع ألحان السمسمية، نهض البرنس فأفسحوا الحلبة، أخذ يحرك ساقيه فى خطوات سريعة يتعالي معها دبيب أقدامه، وهو يتقدم ويميل بذراعيه إلي الجانبين متوازنا، ثم يتراجع فى خطوات قصيرة، وذراعاه تتحركان متوازيتين إلي الأمام والخلف تقطعها انحناءات علي الجانبين، وخوليوس يصفق مع الجالسين بتسارع الإيقاع، ومع مقطع الأغنية الذى يتردد كزغرودة طويلة.

يا طير يا طاير يا وارد ع الميه.

نهض خوليوس. خلع سترته وشمَّر أكمامه، وهو يحرك ساقيه بالتبادل. استدار إليه البرنس فى طرف الحلبة الآخر، وأخذت الخطوات القصيرة السريعة تقرب بينهما، وذراع كل منهما ممتدة حتي لامست أصابع كل منهما كتف الآخر. أخذا يدوران باتزان ثم تباعدا فى دورة سريعة، يدبان الأرض دبة واحدة، ويجولان فى الحلبة، ويتقاربان ويتباعدان. البرنس بقامته الربعة، وبنيانه القوى، وهو يتواثب بخفة الفهد وخوليوس بقامته الفارعة، وعوده النحيل، وجذعه يهتز مع اهتزاز كتفيه بتوافق مع الإيقاع. يتبادلان الأماكن فى دورتهما. حين يقف أحدهما فى منتصف الحلبة، بينما الآخر يدور، وقطرات العرق تسيل وتلتمع علي وجهيهما.

شقت زهرة طريقها داخل الحلبة، وهى تحمل سطل الماء المثلج. أخذا يعبان منه ويبللان وجهيهما. رفع خوليوس رأسه فطالعه وجه

زهرة بملامحه الساكنة، كصورة لأيقونة قديمة، تنساب فيها خطوط الضوء والظلال، فتبرز ملامح الوجه فى ليونة وصرامة، وحبات الترتر والخرز الشفاف الملون تلتمع فى رباط رأسها. يتوقف لحظة أمامها قبل أن يميل ليطبع قبلة علي رأسها. يخيم الصمت فجأة، وتتباين تعبيرات الوجوه. تستدير زهرة، وتنصرف مسرعة، ويلحق بها البرنس، يتطلع خوليوس إلي الوجوه المحيطة به، والنظرات المصوبة إليه، ويجلس منكس الرأس. يعود البرنس بعد قليل، ويأخذ مكانه بجواره، وينظر إليهم جميعا، ثم ينهض، ويدب الأرض بقدمه.

- لماذا توقفتم؟

وتنساب الألحان ثانية.

يجوب مع البرنس شوارع الحى والمدينة، تعرفه جلسات الصحبة واللقاءات اليومية فى الساحة عند دكان سالم، وأكشاك التجار وفلائك البمبوطية، ورتل البواخر التى لا تنقطع فى الميناء، وتتلي كلماتهم علي شفتيه بلكنة ممطوطة.

عندما قرر البرنس الرحيل قال : سأبقي، لم يحددا زمنا أو مكانا، قال البرنس وهو يودعه : حتما سنلتقى، سيجمعنا البحر آجلا أو عاجلا .

وحين يعود البرنس يتردد علي مسامعه اسم خليل، يسأل: من؟ وينظر فى نهاية صف الفلايك المتراصة، فيري خوليوس واقفا عند الدفة، رافعا ذراعيه، ثم يراه يقفز فوق الفلايك، فتتمايل به، ويكاد يسقط فى الماء، ويتعانقان طويلا .

يمسك البرنس بكتفيه، ويبعده قليلا وهو يتأمله: توقعت كثيرا أن

أراك، لم يخطر لى أن نلتقى هنا.

يضحكان ثم يستطرد قائلا ؛ وها قد أصبحت خليل.

جلسات الصحبة يصبح لها طعم خاص بمجىء البرنس، وحكاياته التى لا تنقطع، وأمسيات الطرب.

لكن ها هى زهرة تتواري بنظراتها المراوغة حين يلمحها علي الشاطئ مخلفة وراءها شوارع الحى.

ـ ماذا بك يا زهرة؟

تتعثر ابتسامة علي شفتيها: ماذا أحضرت لى معك؟

تقولها دائما حين يعود، فيجيب قائلا : أحضرت رمالا من شواطئ بعيدة، وقوقعا لا مثيل له.

تجرى وراءه متجهمة الملامح، يتضاحك الرجال، ويقول سالم: اشترِ نفسك يا برنس، فلن تسلم من لسانها.

لكنه يتأملها طويلا . وهى صامتة: ليتنى أعرف ما تريدين.

يراها تقطع الشاطئ، وخوليوس يسير بجوارها، حاملا سلتها، تبتسم، ويلوح خوليوس بيده، ويجوبان شوارع الحى. يتطلع للجميع حوله، ولا يجد إجابة لسؤال لم يطرحه.

فى المساء، حين يتوافد الرجال إلي الساحة، يفضون اللفافات التى يحملونها، ويفرغون محتويات الجيوب، وتتناثر الأشياء: ساعات يد . أقلام. قداحات. أحذية رياضية. بنطلونات جينز، قطع من الملابس. علب سجائر. العاب أطفال. صور لمناظر طبيعية، وصناديق تفاح

ومعلبات ..

تفحصها زهرة بدربة، تنتقى منها أشياء تطوف بها علي البيوت، يحصى سالم عدد الصوانى المنقوشة والعلب المطعمة بالصدف والتماثيل الصغيرة التى استبدلوها بتلك الأشياء، ثم يجمعها ويصففها علي أرفف الدكان، يلمح البرنس شاردا فيقول له: لك ما شئت منها، لكنه يشيح بوجهه.

يأتى خوليوس بصحبة رجلين أجنبيين، يخرج من جيب سترته علبة سيجار ويوزع عليهم، ثم يضع العلبة بما تبقي بها أمام البرنس، يقول لسالم: أريد مجموعة من الأنتيكات مقابل ما طلبت، يشير لأحد الرجلين وهو شاب فى مقتبل العمر : سيتولي ذلك.

يخرج إيشارب من جيبه ويحيط به رأس زهرة، تخطفه وهى تتأمله ويشير إلي الرجلين قائلا : يريدان معرفة الطالع.

تفرد رقعتها، ويتحلق حولهم الرجال، يتقدم أحد الرجلين، شعره أبيض، طويل، مرجل للخلف، تتراكم الظنون علي وجهه. يتناول القوقع، ويستمع إلي خوليوس يهمس له، ويعطيه لزهرة، وهو يرقبها بعينين ضيقتين لامعتين، ويتعالي إيقاع عباراتها القصيرة.

ـ بعد نقطتين سيلقي المرام.

ويردد خوليوس رافعا إصبعيه: ديو

ـ يعنى يومين .. شهرين .. سنتين .. رحلتين .. أو خطوتين.

يتحدث الرجل بصوت محشرج، فيقول خوليوس: يقول إنه عاش كثيرا، وتجول كثيرا، لكنه لا يضمن عمره ثانيتين.

يقول أحد الرجال: قل له يا خليل، متي وأين ستتوقف خطاه. يضحك الرجل فاغرا فاه الخالى من الأسنان، فيضحك خوليوس قائلا : يقول إنه لا يملك سوي عصاه وقبعته، وإنه أوصي بعصاه للشاطئ وقبعته للبحر.

تتعالي الضحكات، وتتناثر التعليقات، وينتحى البرنس جانبا، وخوليوس ينقل الكلمات بينهم وبين الرجلين، وتدور أكواب الشاى.

ـ أحببتها.

ينكس رأسه، مثلما فعل تلك الليلة، وتضطرب ملامح الوجه.

ـ ألم يكن بين النساء سواها؟

ـ لم يكن الأمر اختيارا.

يرفع إليه عينين محمرتين، ويقطع صمتهما ترنيمة نورس منفرد، تتلي أيام قضياها مستقلين علي أسطح البواخر، والتجوال فى الشوارع والأزقة وارتياد المطاعم والحانات، وصفقات مع تجار ووسطاء، ومدن وشواطئ شتي، يجمعان النقود ويبددانها، واللحظة التى قررا فيها معا أن يأتيا.

يعلو اسم خليل ويطن فى أذنيه، يراه يجمع القواقع فى قبضتيه، ثم ينثرها علي الرمال، وهو يتحدث إلي زهرة، ويضحك الجميع حولهما.

يندفع فجأة ويمسك بالقواقع، ويلقي بها بعيدا ، ويطيح بالرقعة، يركل الأشياء بقدميه ويزأر : منذ متي عرف الخواجات طريق الحى، ينظرون إليه، إلي خوليوس، فيواجهه بنظرة حانقة: ألا يروق كلامى لك يا خواجه.

يخيم الصمت، وتقترب زهرة، وتقف فى مواجهة البرنس: كفي يا برنس وتمضى مبتعدة وهو يحملق نحوها، بينما يجمعون الأشياء المتناثرة، ويمضى خوليوس مع الرجلين.

تلوذ بمكانها علي الشاطئ، تتلمس خشونة الرمال تحت قدميها، وتتسمع وشيش الموج حين يصطخب ويعلو هادرا بمياه داكنة، تظهر شفافيتها فى الدُّرا ... قل هو البحر كان وفى النهاية يكون، تفتح نافذة عليه، تتهادي منها طيور النورس، يأتى معه بأصداء حافلة بالعابرين عبر الزمن المنصرم والآتى .. تتشمم فيه رائحة الغياب، وتتلمس الحضور، يفصح عن المكنون بوشوشات يودعها أعماق القوقع .. تلقى بنفسها لأمواجه فتهدهد الجسد المنهك والأقدام التى أبلتها الطرقات، تتلاحم معه فى لقاء حميم، تضمَّخ الجسد باليود، بملمس الطحلب الزلق، تطفو خفيفة متماوجة .. تنفثئ فقاعات الزبد، ويتطاير منها شرر الماء.

.. وهناك كان خوليوس، يمد قدما للأمواج وقدما منغرسة فى رمال الشاطئ .. يشير لآثار الموج علي الرمال، ويطلب منها أن تقرأ طالعه فى خطوطه .. وكانت أشعة شمس الغروب القرمزية تتخلل بشرته وزرقة عينيه .. تطوي المسافات، ويتوقف دبيب الزمن، تغيب فى الأفق حين يتلكأ قبل المغيب، تستحضر منه تعويذة الأبدية فى الحد الفاصل للمواقيت .. المدي مباح، والرياح تواشيح عشق.

تسمع طرقات علي الباب، تفتح لتجد البرنس أمامها يتصدر بقامته فتحة الباب، تنتحى جانبا فيدخل، يجلس علي الأريكة. تنهض لتعد له فنجانا من القهوة، فيشير لها بالجلوس، ترمقه بنظرة سريعة وهو يعبث بأصابعه فى مصراع النافذة، وعيناه تجولان فى الحجرة، ثم تستقران عليها.

- أما زلت غاضبة منى؟

تلمح ظلال ابتسامة تتراقص علي شفتيه، فتتواري ابتسامتها فيضحك البرنس.

- هى زهرة التى أعرفها جيدا .

يتأمل ملامح الوجه، وهى تتماوج باحتداد وهى تنظر إليه، ثم تتواري نظراتها وتدور فى الحجرة غير مستقرة.

- لم أحتمل أن تكونى لشخص آخر.

تستدير إليه بكليتها: أحبه يا برنس.

ينظر إليها طويلا ويتمتم: أحقا يا زهرة؟

- المقدر والمكتوب.

- وأنا؟

- أنت البرنس كما عرفته وأعرفه دوما .. مثلما أعرف شوارع الحى والبيوت، معرفتى بالناس حولى، والأماكن، والأشياء، وكما يدور الوقت بمرات ترحالك وقدومك.

يخبط الحائط بقبضته فتهتز الجدران.

تنهض، يقترب منها، ويمسك بيدها: أحبك يا زهرة.

تسحب يدها وهى تبتعد، وحين تستدير تجده فى مواجهتها، تتراجع فيقترب منها، يلاحق جسده جسدها ثم يحتويها بين ذراعيه، تدفعه فيزداد ضغطا، تميل برأسها محاولة أن تصرخ، فتكبح صرختها يده

المطبقة علي فمها، تتوقف أنفاسها، وتشعر بلفح أنفاسه علي وجهها، ويده تتلمس ملامح الوجه، تستجمع قواها فى دفعة قوية، وتنفلت من بين ذراعيه. يظل واقفا مكانه كما هو، يمسح دمعة توقفت طويلا، ثم تسللت إلي خده، ويمضى مسرعا.

قال لها خوليوس إنه فوجئ برحيل البرنس، دون أن يخبر أحدا ، كانوا يجلسون فى الساحة عند دكان سالم يتهامسون بكلمات قليلة، عندما جاء كانوا عازفين عن الكلام حتي أخبره سالم.

خرجت زهرة مستطلعة، قال أحدهم: ليس رحيله كسابق عهده.

قال سالم: البرنس لديه مبرر دائم للرحيل.

وقال أحدهم: كأنما يرحل لأول مرة.

تحاول أن تسأل، فيشير لها سالم برجاء أن تبتعد.

تتجمع النسوة حولها، تتناول القوقع من الفتاة الشابة وتحتويه فى قبضتها، ثم تخط علي الرمال.

ـ لا مفر من المكتوب ع الجبين

ـ قريب أو بعيد لازم تشوفه العين

تتوقف ساهمة فتسألها الفتاة، وماذا يا زهرة .. أكملى، تقول إحدي النساء: وماذا يازهرة عن ملامة اللايمين. تنظر للوجوه المحملقة فيها، وتتسرب الرمال من بين أصابعها. تقول امرأة أخري: طالعك يا زهرة أم طالعها؟

تلملم الأشياء، وتصرها فتقول امرأة عجوز وهى تمسك بذراعها:

قلبى عليك يا ابنتى.

تجذب ذراعها من القبضة اليابسة وهى تنهض: لن يقبض الروح سوي خالقها.

يمضى الوقت شديد الوطء، والبحر صحراء شاسعة، لم تعرف طعم ملوحته إلا حين تترسب فى الأعماق. يرنو خوليوس بعينيه بعيدا .. لماذا؟ ولا تستطيع إجابة. حين يولون عنه يعود خليل كما ينادونه، وحين يتحدث عن شاطئ بعيد ما، ينخلع قلبها فتتشبث بذراعه، تضغط بكل قوتها، ولا تستطيع أن تري سوي حدود الأفق المترامى.

يتناثر ضوء المصباح علي الوجوه ويضىء جانبا من الساحة عند دكان سالم، بينما باقى الساحة غارق فى الظلمة، يصمتون فجأة، وهم يلمحون شبحا مظلما يتضح شيئا فشيئا كلما اقترب ، وتجف حلوقهم .. كانت زهرة تقترب عارية الرأس، محلولة الجدائل، حافية القدمين تنظر إليهم واحدا واحدا، وهى تمر أمامهم.

ـ أنا زهرة .. أنا زهرة .. قل لهم يا سالم .. ألست زهرة، قل لهم: وأخبرنى بما حدث ... قل لهم خليل هو رجلى الذى أحببته .. خليل كما أسميتموه هو من أحب .. أليس هو، قل لهم يا سالم خليل من أحببت .. قل لهم يا سالم ..

يقترب منها سالم مربتا علي كتفها، فتتسمر مكانها بقوة، ويتعالي صوتها، ثم يتعالي، تضاء نقاط متناثرة فى ظلمة الساحة، ثم تفتح النوافذ، وتضاء نقاط أخري، وتزداد وسط فرقعات المصاريع المشرعة، تنفتح الأبواب .. ويستيقظ النائمون، والصوت يتعالي متجاوزا حدود السمع، والساحة التى تبددت ظلمتها وسط الأضواء تزدحم بالناس. يتجمعون حولها، لكنه وحده اختفي ذات صباح خلف السور السلكى للميناء، ومن يومها لم يعد.

ربيعة ريحان

شرف البشارة

يسمينى امرأته القدرية ...

ولأننى أعرف تماما هوسه وجنونه الفاحش، ألقى بنظرتى الملولة عليه، وأشير قصدا بيدى إلي تجاوز الحلقة، حلقة الحديث الذى أحذره، حين لا ينعطف إلي أى اتجاه، سوي الانزلاق المقلق نحو كابوس الجفاء والنفور .. وحين يصر علي تذكيرى بهذا النعت، ويظل يحوم حوله، أعرف أننا سنختلف توا، وأنه يجازف، ويفسد لحظات الهدوء التى لزمتنا لساعات، بعد أن كنا تحولنا معا إلي المواجهة دفعة واحدة، فعصفت بنا النعوت الجارحة التى لم نكن أبدا نعنيها.

يبدأ هكذا أحيانا لسعاته المميتة تلميحا :

ـ أعجبك حديثه؟!

أسأل من فورى:

ـ وأنت ألم يعجبك؟!

ـ ضحكت كثيرا، كنت مرحة!!

الخطوة الأولي التى تحفر الهوة .. يفهمنى أنه غير راض عن ضحكى بالرغم من اعتقادى أنه مدخلنا للمزاح. أنهض عن المقعد قبل

أن يمضى بعيدا فى القسوة، يعيدنى إلي قاعدته بحركة كفه القوية. أقوم منتفضة، ويظل علي حاله، لا تزايله الرغبة الصامتة فى الإيذاء.

ـ من أين تأتى بكل هذه القسوة؟!

أسأله أحيانا، حين لا يتخذ وجهه سحنته الغاضبة، ولا يضع تلك المسافة الحرجة التى هى لون من غيظ لا أتوقعه .. وبدلا من أن يجيب، يترك الأمر لنظرته البارقة، وابتسامته الخفيفة، الإيحاء لى بأننى غير واثقة مما أقول.

ـ تريدیننى أن أصير أخرس! ..

تركبه اللامبالاة التى يحتاج دفعها إلي اتقاء انفعالاته المباغتة.

ـ تفعلين ما تشائين و ..

وأدير عينى نحوه، قبل أن تطيش باقى الكلمات ويرتفع صوتانا ... تظل نظرتى معلقة بوجهه. أجد أحيانا أنه قادر بخفة أن يلقى مراسى الأمان، أن يظهر من الرقة ما يقتضيه تليين الموقف، أو بخلاف ذلك، يهرب من وطأة عينى السارحتين، ويتمادي مقايضا ما تبقي من تماسك بلاذع الكلام.

أقر أحيانا بالخيبة وأسأل نفسى:

ـ لماذا أترك له فرصة العبث بى؟!

أشد ما كان يغيظنى منه، حين تخنقنى العبرة، حين لا أضبط دمعى فجأة، صمته الحيادى، هدوءه المريب، الواشى بالتشفى، وإذ يأتى واحدة من حركاته المتباعدة، كتهيؤ لإعلان تعاطف، لتشارك وجدانى، يوحى بالحيرة فى التبليغ عنه، أكون آثرت وضع حد لما يتبدي لى

سخافة عرضتنى لها بذاءاته بعداوة جارحة لا أدرى سببا لها.

وحين لا يتوقف عن التهديد بما يوحى بمعاودة وطأة ذلك الحديث الحانق، أترك للصمت أن يباعد بيننا، وأتلهي بالنظر العابر لما حولى، متغافلة عن كل قول يولد الشجار.

وفى أيام أغيب فيها طويلا ولا أراه، فى بدئها تحديدا، أجدنى محمية بقوة غريبة، ومتحصنة ضد ذلك التوق السائب فى أن نذرع طويلا طرقات فرعية أقل ازدحاما، غير مكترثين بما تحتويه واجهات المتاجر، سوي الإيغال الأليف فى النواصى البعيدة الممتدة فى كل اتجاه، لكن تلك الأناة فى الانصراف عن التفكير فيه، وذلك الإحساس بالارتياح من ارتباط مبهض، يتلاشي سريعا، حين يرتد كثيفا إلي صدرى ذلك الحنين، بأموره الأدعي للتذكر، للحظات الغبطة والألفة، تلك التى تولد الاشتياق الجارف، حين أسمع صوته الواضح عبر الأسلاك:

- أين أنت؟! ..

أشعر بالحرج والتوتر الخفيف لغيابى عنه. أنسي الاختلاف والوحشة، وكيف كنا نتجافي، أشغله بالسؤال عن العتب الحزين، بتحديد المكان الذى هو فيه، وأقع فى شرك الحديث المديد، الذى لا ينتهى إلا بالاهتداء إلي مكان هادئ أكثر ملاءمة للقائنا، هكذا بعد غياب دام لأيام. نأتى فنسلم نفسينا لشحنات انفعال زائد، كتعويض عن غياب شبيه بالمقصود. نذهب بالكلام بعيدا، قافزين علي المسافات والزمن. حركة يده المحبوكة تطبق علي الفراغ وتنبسط، يغزو بها حديثه المتشابك. نضحك. أطلق دعاباتى التى أوثر أن أقحم فيها كل شىء يخصه. ينضح دفء مخملى من بؤبؤى عينيه الواسعتين. أقول لنفسى متعجلة وبإحساس عاطف: كيف يسمح لموجات الأسي أن ترج

سكينة هذا الصفاء؟!..

أعود بلا ضجر إلي نقطة البداية. تلك الأجواء المحرورة التى تتاح أحيانا، بذلك الوهج العاطفى الفاتن، تقود بلا تعرج إلي خط البداية، فى اختراق ماحق لمحطات ملحاحة بالشجن أو رعونة العناد. أعود إلي حيث انتصب أمامى، إذ سعي إلي التعرف، وحرص بشكل جيد أن يعطى ذات الانطباع الذى تكون عليه المصادفات العابرة، بينما صوته يرعش بذلك الجرس المضطرب.

أسأله منبسطة الأسارير مرحة:

ـ كيف خططت لذلك اللقاء؟!

يزداد تأملى لوجهه. تغتلى فى أعماقى شتي المشاعر الواهجة، من اللحظة الجامحة، الغائصة فى بحر التوتر والاستسلام العاطفى المريح .. يجيب بغبطة:

ـ يوم ضربتنى مفازة الوجع من حيث لا أدرى!

نصمت قليلا ونحن نبتسم.

أطأطئ فى وضع سكونى متأملة أظافر يدى، عابثة بها، تلك الحركة التى تلازمنى بإرادتى وفى شرودى، تعبر ذهنى مشاهد عنف كلامى تستغرقنى قليلا. أرفع رأسى، أخمن مسبقا ما سوف يقول:

ـ فين مشيتى؟! ..

أنظر إلي الشارع حولى .. تتبدي الزوايا والسقوف البعيدة معتمة وغامضة، أتملي النوافذ العالية المنارة والمغلقة، أو المفتوحة علي ستائر هفهافة. يصيبنى انكسار ثقيل خفى. أعجب لنفسى من ذلك، من

الإحساس الشائه. تتقابل عيوننا من جديد.

عالم جامح هو عالمه، يزهو بسطوة التقلب، باللارضا، وبالشغف المتعب لرنين الشجن.

فى الذاكرة وفى الخاطر تطفو صور عديدة، أستغرق فى بعضها وأطرد البعض الآخر ... هل ما بيننا قادر أن يكتسب ثقل المعانى والجسارات التى فى جلوة النفس، وسط رياح التوتر المرّ والأحاسيس التى لا تخلو من عبث.

أسأل مغوية:

ـ لماذا أنا بالذات؟ لماذا أنت بالذات؟!

يرد بأسي:

ـ هذه العلاقة ووهجها المباغت ستقودنى منفردا إلي متاهات!

يتكدر وجهه، وتقسو قليلا تقاطيعه، فيستعصى علىّ إدراك الوجه اللامرئى للحقيقة.

ـ أنت تغالى، وإلا ما معني وجودى معك! ..

يهتف:

ـ أنت؟!

وأمتلئ من جديد بالضيق والتعب والخوف وبنار الانخطاف للاندفاعات المفرطة أحيانا والاحتواء المطوق. ألفّ يدى علي صدرى ويتلون وجهى بذلك العياء الصامت. أذكر آخر شجار بيننا. بعد مماحكات أوقفنى بالشارع، ونظر إلىّ طويلا، بوجهه المنشد وعينيه

اللتين تنحدر منهما أحزانه وكآبته. جاس بهما طويلا فى وجهى قبل أن ينبر بشكوي وتوتر:

ـ أنت تضحكين علىّ، لا يمكن أن تعشقى رجلا مثلى!...

سفعنى بجملته، وقبل أن أتمالك نفسى، تركنى بعرض الطريق واستدار. كل الحسابات والتقديرات معه تضيع. تنفر الفرحة، هى لم تطل بعد. تختفى خلف الجهمة التى تنبثق من غير توقع، من تأمل حاد لكلام عابر، يلفع منه خياله بالهواجس والشكوك. كان قد سألنى بإدانة خفية عن صلات وزيارات ضاعت فى توالى التواريخ المنصرمة لأيام غير بعيدة.

تغافلت عن التلميح اللاسع. نظرة خاطفة إليه وأبتدر بتوضيح كل شىء. يصغى بلا حماس. يحوم حوله القلق والتوتر. نزعته غريبة لإقبار أى اهتمام قد يتبدي نحوى. أحس بثقل كدره، وأعماقه التعبة. تلك توهجات أنانيته ووساوسه المبهمة. أتوقف عن الحكى والتوضيح إذ يبادرنى محتجا:

ـ لماذا تعيدين علي أسماعى هذه التفاصيل؟!!

أرد مستغربة:

ـ أنت طلبت!

يعلق بسخرية:

ـ ولم تجدى سوي حديث تودده إليك؟!

بارتباك أجيب:

- هذا كلام فى السياق!..

رد فعله المحير السالب يخل بكل توازن.

أقول ضجرة وأنا علي عتبة الانفجار:

- لا تعد لسؤالى ، لا شأن لك بحياتى ..

أنتبه إلي الشارع من حولى. أتقصد أن أحايد عن انفعالات تتجدد .. يهتاج ويتركنى فى عرض الطريق. ينأي متلفعا بغموضه وغضبه.

قال لى يوما مغتبطا:

- من أين جئتنى أنت؟!..

كان ساعتها يبحث عن مسرات لذيذة، وكنت بغرابة أحاول الاعتياد عليه. ولعت به بداية ثم تعَّبنى نزقه.

ينهض فى هبوب قوى وعيناه علي الرصيف المتماوج المقابل .. يهتز ما علي سطح الطاولة بيننا بضجة مفزعة. أنصعق من حركته المباغتة وأتصلب. يمسك ببعض الورق أمامه ثم يتركه. أمد يدى فى اضطراب مستفهمة. يهبط علىّ التعب والمرارة. أختنق. يقول وقد امتلأ بالعداوة، لاغيا كل توقع بالتراجع:

- أفهم، أنا معك وأنت تسرحين؟!

ويندفع ثانية بلا تلكؤ، متعثرا بين المقاعد. أنتبه إلي نفسى فى وضعى الشاذ الغريب. أبتعد بعينى، وأحتوى وجهى بيدى، وأغرق فى تأمل ضبابى كامد. أحس بالرغم من رقة الجو أننى أغلى فوق أتون.

هادية سعيد

أنا وهى

سألنى الطبيب إن كنت قريبتها، ماذا أقول له؟ هززت برأسى: طبعا طبعا، تربطنا صلة عائلية بعيدة، علي كل حال هى الآن مثل أختى وأكثر. ثم لا تنسي دكتور: نحن فى الغربة.

لم يهتم بما قلته فيما بعد، كان يريد أن يبلغنى معلومة. كأنه يحملها فوق ظهره ويود لو يضع حمله ويرتاح، طيب، هذا حقه، قلت لنفسى وأنا أرقب جفنيه المنتفخين. كنا نقف علي الدرج المؤدى لمكتبه فى المستشفي، وكان المرضي والزوار يتدافعون صاعدين هابطين بضجيج وأكياس وشراشف وروائح. قال: مسكينة، سألته: ما بها؟ فأجاب بحسم: سرطان، يا لطيف. قالها وسمعت ثم قلت ولم يسمع وصرنا بومين ننعق بلا جدوي. لا يمكنه أن يخبرها. لديه تجارب مريرة، لا، لا تهمه مشاعرها وهلعها وكل هذا الذى يمكن أن يضج داخل النفوس. لا يهمه إن كانت تتحمل أو لا تتحمل. كل مايعنيه إبلاغ المعلومة لمن يعتبره مسئولا عنها. وما ذنبى أنا؟ لو يعلم ماذا فعل وهو يصفعنى بمعلومته. ماذا يظننى؟ قريبتها؟ صديقتها؟ شقيقتها؟ لا شىء من كل هذا. كلانا تعرف الأخري ولا تعرفها. أسألها عن الصحة وتهدينى وردا أو ترسل لى بطاقة عيد ونتمشي فى حديقة المدينة الدار البيضاء الفسيحة ونحكى عن كل شىء. نحكى ونحكى ونعرف أننا سنظل نحكى لنصل إلي حديث لابد منه.

لا أفهم لماذا اختارنى ليبلغنى حالتها. قال لى: أنت الوحيدة التى سألت عنها. صار لها أكثر من شهر فى المستشفي، تظن أن كبدها معطوب، خمّنتْ أيضا أنها نوبة قولون. لكن الفحوص أكدت أنه سرطان. سرطان ماذا يا دكتور؟ ثدى؟رحم؟ أمعاء؟

سرطان، لم أفهم منه أكثر، كأنه سيتعب لو شرح لى، قال ان درجة المرض متقدمة ثم صعد درجات سلم المستشفي فى اتجاه مكتبه وداس علي رأسى. كان علىّ بعد لحظات أن أرسم ابتسامتى جيدا وأهديها باقة الورد وأقول لها: مبروك، كل شىء علي ما يرام وستغادرين المستشفي قريبا. علىّ أن أتوطَّأ مع كذبى، من الأحلام إلي الدكتور إلي كله. يقول لى: أرجوك لا تصارحيها لدينا مليون قصة، فما ان يعرف المرضي أنه السرطان حتي يقيمون المآتم قبل موعدها. يولولون ويضربون رؤوسهم بالجدران وينتحبون ويقتلون آمال المرضي الآخرين، لندعهم يعيشون بالوهم، قولى لها أى شىء. ولكن السرطان لم يعد مرضا مخيفا، يبتسم لجهلى، يمسح زجاج نظارتيه ويلعب بمفتاح يطل برأسه من فتق فى جيب مريلته البيضاء، نظرته تشرح لى كم أنى جاهلة ابتسامته تسخر ولا تشفق. لماذا يرفض أن أناقشه؟ تقول طبيبتى: الجهل نعمة لكن نصف المعرفة مصيبة. أتذكرها وأذكِّر الطبيب عما أعرفه وأسمعه عن السرطان، يعبر ويتأفف ويقول: افهمى، لا تصارحيها، وكل شىء بيد الله. لم يقلها بإيمان يشبه إيمان جارنا القديم، الحاج درويش. ذاك عيناه طيبتان وكلماته فيها رأفة ورحمة. كنت أعيد كلماته لأخفف عنها فأجد لسانى يتزحلق فوق رخام، لا فائدة. الإيمان لا يستعار والرأفة هبة وقدرة. أستطيع أحيانا أن أصبح مثل الحاج درويش فأحنو علي أمى وابنة أخى وقلة من الناس وكان ذلك قبل أن أكبر وأتغرب خربتنى السنوات منذ أن اشتغلت مدرسة ثم سكرتيرة إلي أن تزوجت المدير وأصبحت مرافقته وسكرتيرته وكاتمة أسراره. صار زوجى رجل أعمال وأخذت قيمته

وقيمتنا تكبر وتصغر حسب الظروف والبلاد وأحوال الناس الذين نعاشرهم. فى غربتى معه منذ أن أغلق ميناء بيروت ثم احترق مصنعه فى الشام وتعثرت تجارته بين الكويت وعمان ومنذ أن كثرت أعماله ومشاريعه بين الدار البيضاء والإمارات، أصبحت حرة أملك كل الوقت. اكتفيت بالزواج والإنجاب وتحول زوجى بين الأيام والأحداث إلي رجل أعمال ناجح وهادئ وصامت. كان يعمل ويسافر ويأتى بالأموال وكنت أصرف ما فى الجيب ولا أنتظر أى غيب ولماذا أنتظر؟ وماذا أنتظر؟ سكنت فيلات وبيوتا رحبة وشققا ضيقة وغرفا مظلمة ورافقت زوجى إلي الكازينوهات والسهرات وأندية القمار وانتظرته فى بيوت تشبه الأقبية أو القبور، ضحكت من قلبى وبكيت ثم لم أعد أقدر سوي علي أن أتبعه أو أنتظره.

عندما التقيت بها بعد عدة سنوات من غربتى وقبل حملى بطفلى الثانى قالت لى إنها كانت تحب أن تصادقنى. تذكرتها كانت فى بيروت عندما كنا وكانت بيروت، جميلة ورشيقة وأنيقة. لكنه تركها وتزوجنى، اختارنى لأنى الأجمل والأحب الي قلبه، لم أقل لها هذا لكنى ابتسمت بمكر، فى كل مرة ألتقى بها كنت أزيد من الابتسامة وأسألها عن الحال والأحوال وأحكى عنه، عن زوجى الذى تركها وتزوجنى أعزف علي وتر غيرتها وأفرح، كانت تموت من الغيرة، تصفر مثل حبة نارنج وتذرف دمعة وسخة بالكحل وتكذب. تقول إنه زكام وأنا أعرف أنه بكاء. تبكى. فلتبك. يجب أن تعرف مشاعر القهر والغيرة. جلسنا ذات يوم فى حديقة الفيلا الصغيرة قبل أن يبيعها زوجى بعد صفقة خاسرة. قالت إنها تذكرته رغما عنها. ما أوقحها. تحكى عنه وكأنها تحكى لى عن غريب بعيد ، مع أنى جررت الكلام ليصل إليه وكأنى أشد حبلا يتعلق به غريق. ما أراحنى هو سفره القصير وزيارتها لى فى غيابه. قالت انها لم تفكر يوما أن تتزوجه لا يصلح لزواج تحلم به. تقليدى وشديد

الهدوء ويفضل المرأة الضعيفة. ضحكت لها بغير اهتمام وخبأت غيظى المحموم وقمت للمطبخ أغلى القهوة وألعنها. أضفت حبات السكر للقهوة التى تحبها مرة، وعندما رجعت ورشفت قهوتها أكدت لها أن السكر قليل وأنى حرصت علي أن يكون ذرات لا أكثر. تركتها تتكلم ورحت أراقبها. كانت تحكى كطفلة غبية عن انبهارها به عندما كان يهل فى مقاهى رأس بيروت بهدوئه ووسامته أيام العز، وكنت أطلق حكمتى كمن يحمل عصا وأقول لها ان الانبهار والتسرع من أخطر العيوب، وما ان تبرق نظرتها وألحظ أناقتها حتي اختلق حديثا يؤكد حرصى علي أن يهتم الإنسان بالعقل والتفكير قبل أن يهتم بالمظاهر الخداعة. ضحكت ذات يوم كما تضحك الراقصات فى الأفلام وأنا أسمعها تحدثنى عن محاولته العبيطة لتقبيلها. ما أشد خجله تقول، ثم تعيد ما روته عن مللها منه وعشقها الكبير للجراح الشهير. أعرف أنه تزوجها يومين ثم هرب مع أنها لاتعترف بفشل زواجها هذا لأحد. ظلت طويلا تؤكد أنهما لم يفترقا، وأنه مشغول بالعمليات والمؤتمرات وهى تشرف علي مراقبة أملاكه وعقاراته بين البلدان، وفى كل زيارة أو نزهة أو لقاء تسعي أن تذكرنى بزوجى وتتذكره معى. هى لا تعرف أكثر من ابتسامته وهدوئه وخجله. تقول إنه بسيط ومحدود. عرفت منه سطح البحيرة، هذا ما قاله لى، بينما غصت أنا فيه إلي الأعماق. انغرزت فى عواطفه. ما أغباها لا تعرف كيف تصبح فأرة ثم حشرة بيننا. حين نكون معا وأذكرها، يبتسم ثم يسخر ثم يكبر قلبه ويطلب منى أن أكبر عقلى. يضحك لى ويحبنى ويقبلنى ويهمس بما يلقيها بعيدا. شعرت مرة أنه يخبئها تحت قميصه وذات ليلة داعب عنقى وكأنه يبحث عن خصلات شعرها الطويل. سكت وسمعت أزيز فكى المطبقين. ثم غضبت وسألته وسألته وسألته وأجاب باختصاره المعهود: عرفتها. أعجبت بها. اكتشفتها. لا تصلح لى. لم أفكر أن أتزوجها هى التى فكرت. ألمحت ثم عرفت فابتعدت. أما هى فقالت لى بعد يوم شاق أمضيته معها وأنا أجذف لأصل إلي ما أريد: عرفته. أعجبت به.

ظننت أنى أحببته. لم يستغرق هذا الظن أكثر من لحظة. مللت منه. لم يستطع اكتشاف أعماقى. تركته. سكت وسكتت لتبحث عن كذبة. أعرفها. تريد أن تحمل السياط وتلسعنى لماذا تفعل هذا؟ مع انها لم تَر منى إلا الرقة واللطف. تشرب قهوتى وتجلس فى حديقتى وتقشر تفاحة وتنعم صوتها عندما تلتقينا معا. رفعت أول سوط فى وجهى وقالت: تزوجك وكأنه يتزوج جزءا منى. ثم ألحقته بالسوط الثانى فوق رأسى: لديك شىء يذكره بى. لا أعرفه تماما. ربما النظرة أو اللهجة. إلي أن ركلتنى أخيرا: لا أعتقد أنهما الركبتان وصلابة الزندين.

كاذبة. تسبح بالكذب. كيف أشبهها؟ وجهى وشعرى وقامتى. براءة الأطفال والكستناء واستدارة الردفين والعاج؟ كيف تشبه هذه النعمة غجريةً محمصة برقبة كالزرافة وقامة تفتقد التناسق؟ أنا الأحلي. كلما التقيت بها أبحث عن سرها وما ان تبتعد حتي أسأل المرآة فأرتاح ولا أرتاح.

قبل شهر عاد زوجى من السفر وجاءت لزيارتنا. راقبتهما. كانت تشرب القهوة وكان يسألها عن زوجها الجراح فتجيب وتتلعثم وتغير الحديث ولا تسأله عن أى شىء. قدمت لها القهوة ولم أزد من السكر. صنعت له كوكتيل العصير الذى يحبه. رحت وجئت الي المطبخ وصرفت الخادمة قبل موعدها راقبت يدها البيضاء وهى تحركها كالفراشة بين خدها وبين حضنها راقبت التفاف ركبتيها ووهج زندها. تقترب من الأربعين وما زالت ندية. بحثت عن خيط اللحم المشدود بين نهديها. عددت السجائر التى أشعلها. عددت ضربات قدمه المرتجفة. سمعت ايقاعها يضج فى رأسى. سمعت رجفات صوته، لمحت احمرار غضاريف أذنيه. تابعت نبض تفاحة حنجرته. شددت بيد خفية حزامه ناديته بنظرة تتمني أن ينشغل ويتركنا ويذهب. كانت تخبره عن نجاح زوجها وشهرته وكأنها تغيظه وكان يخبرها عن مشروع جديد. أطلقت

صاروخها فرددت بأكبر منه. فهمت منى أن زوجى أيضا رجل أعمال ناجح وأن الصحف تنشر أخبار مشاريعه وأسفاره. لم أقل لها ان صديق ابن أختى صحفى وأخبار زوجى تصله فيتصرف. لم تعرف أن كوكتيل العصير الذى أعددته له وموجة الحنان والاهتمام كانت بسببها لا بسبب الحب والشوق. لم أحبه أمامها ولم أشتَقْ له بعد السفر. لم تهمنى صفقاته الناجحة الأخيرة ولا لقاءاته بالشخصيات المعروفة. ما يهمنى إغاظتها وتصغيرها الي أن تذوب. تمنيت لو تخطئ فأصحح لها الخطأ بترفع وتهكم. أردت لو تفلت منها كلمة إعجاب أو تغافلنى بهمسة لأصفعها وأطردها. وددت لو يزيد من اهتمامه بها لأناديه ليرد علي مكالمة وأوبخه وأردعه وأهدده فى المطبخ. لكنها جاءت وذهبت وعلق زوجى سترة سفره ومشاعرى وفتح الحقائب ونشر الهدايا وسألنى عن حملى وكأنى أحمل لأول مرة وقبلنى باشتياق. وفى اليوم التالى تذكرها وقال لى ينبغى أن نطمئن عليها إذ قالت انها أجرت فحوصات كثيرة وان زوجها غائب. مسكينة. قلت كاذبة. ثم، كأنى خفت من ارتياحى لانشغالها بمرضها وخشيت رغبتى بعذابها. مسكينة. أنا أيضا مسكينة. كأنها واجب أتمني أن أكمله وينتهى. ماذا أكمل؟ ماذا أريد منها؟ لم تكن قريبتى ولا صديقتى. عرفتها كما أعرف كل الناس الذين أعرفهم. صدفة تحدث ملايين المرات تحت مجرات الكون، رجل كان يريد أن يتزوج امرأة فتزوج أخري. ماذا أريد أن أعرف أكثر بعد هذه السنوات؟ ليت اسمها لم يمر فوق لسانى ذات ليلة مجنونة نبشت فيها بأظافرى تحت جلده لأخرج كلمات وعناوين وألوان ثياب وأنواع عطور، وبحثت فيها خلف ابتسامته عن ضحكات قديمة وفتشت بين خصلات شعره لألتقط زاوية من مقهي ولقاء عابرا مع امرأة. هو أيضا ساعدنى أمسك بيدى وعلمنى كيف أنبش أكثر. قادنى بالاعتراف إلي مسالك اكتشفتها بالكلام. حكي لى ليرضينى فكنت أرضي وأتعب. وصارحنى ليخبرنى عن زمن مضي ومات فأيقظ وضعا أرهقنى

وأنهكنى. كان يجب أن يحدث ما يوقف هذا الطوفان الذى انطلق ليجرفه ويجرفها ثم يجرفنى. أصبحت بيننا. حملت بها مثل كل طفل كان يكبر ببطنى وأدخلتها بيتى وحياتى، وضعتها فى بلّور مرآتى وبين طيات ثيابى، حبلت بحكايتها وأجهضت تفاصيلها كل ليلة. صارت بيننا. قياس مهم لحلاوتى وفصاحتى وذكائى. أنا شابة إنما هى؟ أنا ابنة ناس انما هى؟ أنا صدرى وقوامى إنما هى. أنا. أنا. هى. هى. أصبحت بيننا. بينى وبينى وبينه وبينى وبينى وبينها. كان يجب أن يحدث شىء لأوقف نفسى. كان يجب أن تسافر أو نسافر. أن نتشاجر. أن أكتشف خيانة أو خديعة أو أن ينتهى كل شىء بالموت. من يموت؟ هى أم أنا؟ لا أقدر علي الموت. أخاف علي أولادى وحملى وزوجى الذى ليس له سواى وسوي مشاريعه. أخاف من أمنية تود موتها فيعذبنى هذا الذى وضعته أمى فى رأسى فصار منبها يحاسبنى. أبعدت الفكرة وتمنيت لو تختفى. هكذا فى حادثة غريبة. أفيق ذات يوم فأسأل عنها فيقولون لى: لا نعرف. أين هى؟ لا نعرف. سافرت؟ لانعرف. خطفت؟ لا نعرف. تمنيت أن تذهب وتختفى فأنشغل عليها يومين وأقول لزوجى عنها كلمتين ثم أنسي وأستريح. لم أتمنَ لها السرطان برقت فكرة موتها ثم خفت منها فدفنت الفكرة وعلا صوت المنبه فى رأسى. كبرت عقلى مثلما أراد زوجى وعدت للقائها بهدوء وسهرنا معا عندها وسمعتها تحكى مع زوجها بالتلفون وتكركر ضحكتها وسمعت صديق زوجى يقول إنها شخصية مهمة وحلوة وأنيقة فلم أشعر بأى شىء.

كان يجب أن أبحث عن راحة وسكينة ووجدتها فى اعتراف لنفسى بعد ليلة أمضيتها مع زوجى فى مزرعة إحدي شركائه. كانت البساتين وكان القمر وتفتتنا الي ملايين العشاق وجلنا القارات بأجنحة واستطعت أن أركنها فى تلك الليلة بعيدا وفى الفجر كنت قد سحقت مشاعرى الخفية نحوها مثل طفل يسحق بقدمه حشرة فيثبت قوته لنفسه قبل أن تؤكدها له أمه. كبرت عقلى وبدأت أسأل عنها. لم

عروسية النالوتى

علمتنى يا أبَتِ أن أحضن الحياة

تطول الساعات الفاصلة، تعض حد الصبر، وتمضى تحفر فى الشرايين، تتثاءب فى الرئتين، فتتباعد فِقر القفص الصدرى وتعود تتكاتف لتخنق الوَتِين وتصد الحياة.

كان ينتظر وفى دهاليز الانتظار إعادات نظر لسالف منظور. مسح بالضجر الأمل مساحة القاعة مرارا والحيطان. ومرر بيده علي ركبتيه يهم بالوقوف، بالعدو ... فتصده أصداء التعليمات الزاجرة: «هى لن تلد إلا بعد ثلاث ساعات علي الأقل».

هى؟! ضمير غائب، مجهول؟! صوت نكرة يخرج من حناجرهم؟

هى؟ من لا يعرفها؟ «الخضرا» بنت عمى، «عيلتى» وكنة أمى. الخضرا من ذا يجهلها، سبّاقة الفجر للعين تملأ الماء فى القلل ... يقولون «الماء أمان»، وأَمْنِى أن تكون هى فى البيت وتدا يصل الفضاء بالأرض.

كنا نلعب صبيين أمام فسحة الحوش وكان الخصام يجمعنا. والعنف طريقنا يفتح فى القلب فوهات للحب. كانت لا تخجل منى، كلما حاولت إذعانها تقف كالشوكة فى حلقى، فأغص بكلماتى ويحقن دم الهزيمة علي وجهى فأكرهها وأحبها وأحقد عليها وأقترب منها ولا أدرى. وأثور

علي نفسى وتنعم هى.

«ونعمة ربى تحبك، الخضرا ما تقدر تكره حد خصوصى أنت» تقول ذلك أمى، وتنظر إلي أبى تحاول قراءة الفكرة الجارية فى سواقى جبينه المحروث. صورة للأرض أبى، حارثها والفلح فى سهول جبينه. قاهر نتوءاتها وتضاريسها ونتوء الزمن علي وجنتيه.

كانت أمى لا تسأله، لكنها تطيل النظر إليه. وتطالع أخبار المزرعة علي وجهه، نشرة يومية لأحوال الأرض هو، هى تقرأها وتفرح وتحزن ولا تقول شيئا. وأبقي أنا عالقا بعينيها أنتظر المحاصيل وأشتاق إلي الفرحة.

«فرحنى يا طبيب قريبَش الخلاص؟» قلت ذلك وانتظرت فقال«مازال! عسيرة حالها يا هذا»، وانصرف. ثم عاد وقال «سنقلب حالها ونحلل أسباب العسر عسي أن نتفق ونصل إلي الحل».

شعر بالسقف ينحدر وتتضاءل مساحة القاعة، فتتخبط رئتاه فى صدره بحثا عن الهواء المفقود.

جري وراء الطبيب يستعطفه. كان يريد أن يقول كلاما كثيرا أن يقص عليه ملحمة العشرة بينه وبينها لكن هذا الثوب الأبيض أوقفه فحشرجت الكلمات فى صدره: «يا طبيب! الخضرا .. الخضرا عصابة* رأسى! الخضرا توَّه أمانة فى رقبتك».

$ $ $

لم يكن أبى يكثر الكلام. وعندما يعود إلي البيت يجلس إلي جنب أمى فيسكن الأمن عينيها ويتألق سحر بين أهدابها. كنت أسمع مناجاة

* منديل من الحرير أو القماش يلف به الرأس أو يوضع علي الجبين علي شكل لفافة ويربط إلي

صامتة بينهما. وكان فضولى يطرق أبوابهما الموصدة أمامى، فأتسلق أهداب أمى لأستمع لهذا القصيد الغزلى القديم المتجدد مع كل المواسم والصاخب مع كل غليان قدر.

ينزل أبى للسوق مرة فى الأسبوع ويعود ببعض الحاجيات ويخرج فى كل مرة «عصابة» من جيبه يكون قد اشتراها، ويضعها فى حجر أمى. «لفى بيها رأسك كتعودى تخرجى الصباح». وينظر إلىّ فى حرج ويضيف وكأنه يريد أن يجد حجة لهديته «صقع ها الأيام».

وكان يقول نفس الكلام حتي فى أحرّ أشهر الصيف، كنت أحب تلك «العصابات» المزوقة بالأخضر والبنى ووددت كم مرة أن أعانق أبى وأقول له «كم أحب لون الخضرة ورائحة الثري التى تفوح من صدرك يا أبت». يذهلنى هذا الغموض ويشدنى إليه، يعلمنى اللهفة والصبر فى اللحظَة نفسها.

ـ لا تتركى القدر بدون غطاء ... عند الغليان قد يتبخر الماء! لم تضنَّ علىّ بأسرارك يا أبى؟ لكننى سأعرفها بقوة الشوق الذى زرعته فى والعشق الذى ينمو معى ويفتح الباب السابع الموصد بالأختام.

$ $ $

لم يعد يقوي علي الجلوس، يعذبه أن لا يحرك أطرافه والقلب يلهث من العدو. وهذه الحيطان الباردة سدود فى وجهه تصرخ «ممنوع الدخول» وخلفها تصرخ الخضرا والمولود لا يصرخ و «ممنوع الدخول».

خرج ثلاثتهم من المكتب بعد طول حديث، يدس الأول يديه فى جيوب ثوبه الأبيض النظيف وأمسك الثانى بطرف بدلته يمسح نظاراته ليتأكد من صفاء زجاج الرؤيا بينما تقدم ثالثهم نحو الغرفة فتبعه كالعاصفة المضغوطة: «شوفوها يا طُبّه يا وخَيَّانى موش معقول

تَبطي ها المدة الكل! اللى عليها عملاته!».

حدق فيه ثلاثتهم وأجابه أحدهم: مهنتنا ونعرفها وأمضينا شطر أعمارنا ندرسها!

فقال وقد نفد الصبر: ومتي ان شاء الله تحصدون؟

فأجابه أحدهم: متي يعلن موسم الحصاد عن نفسه وانصرف ثلاثتهم. فطأطأ رأسه وأحس بهزة عنيفة تديره بسرعة محمومة فيلتف حول نفسه الي حد الاختناق ثم ترتخى اللفافة تنبسط أمامه كشريط أخضر ينساب بين الصخور فيغمر قلبه أمل جارف يفلح الأفق فتتراءي له صورة أبيه ينحنى علي بعض النبتات التى خنقتها صلابة الاديم الترابى. كانت الشقوق ضيقة وكانت النبتات تصارع من أجل إخراج سنمتها فتتحايل علي السقف وتستند علي وريقاتها الفتية فتخرجها من بين الشقوق لتحمل لها بعض الحرارة المتدفقة علي الأرض. كان جهاد الكائنات النباتية الصغيرة من أجل مكانها المشروع فى الأرض رائعا، ورائعة نقرات الأصابع الإنسية توسع الشقوق وتسهل عملية الحياة وتحضنها بالتراب الهش الذى اختلط بحرارة الشمس والهواء، فيسرى النُّسْغ الأخضر فى شراينها وتهتز وريقاتها مع هبات النسمة الحاضنة. عندها تنطلق أسارير وجه أبى فيفرك كفيه ينفض التراب عنهما ثم يغتسل فى مجري السواقى ويستنشق رائحة الخضرة والتراب يعبئ بهما رئتيه فيتضخم يتضخم وتطول قامته ويمتلئ صدره فيبدو إلها من آلهة الفراعنة، ينشر الخصب ويفيض الأنهار، يسقى بها العطش الإنسانى المزمن.

$ $ $

اصطدمت نشوة الفضاءات الواسعة بضيق الحيطان الصامدة فى

وجه الفرحة. وعلا الصراخ، والخضرا لم تلد بعد. والأطباء يدخلون ويخرجون والوجوه منبسطة ولا أثر للأزمة عليها.

أدخل يده إلي جيب سترته يبحث عن سيقارة محتملة فيه فتوقفت أصابعه عند ملامسة شيء من نوع القماش هو لم يعرف سبب وجوده ولا لأى غاية وضع فى جيبه. التفت حوله كان وحده فى الغرفة فجذب قطعة القماش ليتثبت منها فإذا هى عصابة كالتى تلف بها أمه رأسها. فأشرقت شمس الصيف داخله تكنس الرطوبة وتتسلل الي طيات أعماقه فتسرى قشعريرة فى كامل الجسم تعيد اليه لذة الشوق وصخب الحياة.

اندفع عاصفا يقتحم غرفة التوليد، وراعه أن يري الخضرا عشيرة عمره، جاحظة العينين، مكمودة الوجه، اختلطت حبات العرق فوق شفتها العليا بفقاقيع بيضاء علي جانبى شفتيها والفم مفتوح والصرخة معلقة علي عتبة الصوت. احتار «يا بنت عمى عزيزة علىّ اليد قاصرة وما ندل حيرة» بادر الي الحنفية يملأ كفيه ماء ورش به الوجه المعذب المضغوط، ثم سقاها شيئا منه وحرك رأسها بكفيه المبللتين ذات اليسار وذات اليمين، يوقظها، لكى تواصل عملية الدفع «ما عاد مازال ها الخضرا هانى بجنبك. شدى ها المحرمة عضى عليها بسنونك».

تكورت الخضرا علي نفسها بعد أن استنشقت نفسا طويلا يعينها علي الرحلة داخل نفسها، وكان صراعا من أجل امتداد السهول وديمومة الحياة. كانت أصابعها تمسك بغصنى زيتونة عتيقة يضيء زيتها حقول القمح وتتراقص أشباح الأشجار علي صفحة المياه فى السواقى، يستحم فيها هذا المخلوق فيها والخارج منها وإليها يعود ينتعش بألبانها ويمتص الحنين والوفاء لها.

كانت الرياح موجوعة تصفع الأشجار، تشدها من أوراقها تلطمها

ثم ترتخى وتئن من الوجع الضاغط. تواصلت الأنات خافتة متقطعة تلاها صمت مشحون انفلقت علي إثره صرخة دكت لها الجبال فتدحرجت الحجارة من كل مرتفع فى دوى رهيب يذكر بدمار الكون، وما هو بدمار، بل هى الحياة تعلن عن وجودها بعنف الفرحة المزمجرة فيها.

ارتخت عضلات وجهها وانفجرت شفتاها. انحدرت دمعتان علي وجنتيها تغسل آثار الزوبعة. فسارع هو الي «العصابة» ولف بها جبينها المغسول بالعرق.

$ $ $

تسارع الأطباء الثلاثة علي اثر الصرخة ووقفوا علي عتبة الغرفة فى شبه غيبوبة ينظرون المارد الذى حملته العاصفة فكسر جسر الممنوعات وعسف بالقوانين وانتصب بجانب الخضرا يشد علي جبينها وينتظر أياديهم تمتد اليه.

حدجه أحدهم بنظرة حاقدة ونزع قفازه ورماه أرضا.

- «كيف بديت كمل» ثم غادر الغرفة. فأطرق الآخران وأطالا النظر الي مشهد الحياة تنتصر علي مسيرات التلكؤ والقلَف. كان المولود ما يزال مشدودا الي أمه: وأبوه يمسكه من رجليه فىَ انتظار الصيحة تعلن سلامة النفس.

طالت لحظات الدهشة الصاحية، ثم أعيد للقلب نبضه وامتدت الأصابع أصابعهم تعمل علي تنشيط الصدر الصغير عندما انطلقت تلك النغمة الراقصة، تعم الغرفة وتفيض علي الأرض.

تحاملت الخضرا علي نفسها ومدت اليه يديها تبارك وتعض علي

لطيفة الزيات

الشيخوخة

هذه يوميات كتبتها من عشر سنوات وسقطت فى زحمة أوراق منسية. حاولت تعديل هذه اليوميات لتعبر عن منظورى الحالى للحياة كامرأة وككاتبة وتبينت استحالة ذلك. فكل شىء يتغير ويتبدل وخاصة فى المرحلة المتقدمة من العمر، ومنظور امرأة فى الستين غير منظور امرأة فى الخمسين، وإن اندرج الاثنان فى كلٍّ متعدد الجوانب متناقض الوجوه يلقي التصالح فى نهاية المطاف.

وقررت نشر هذه المذكرات كما هى علي أن أضيف لها بعض ملاحظات توافرت بحكم السن والخبرة، فما من تجربة شعورية تتكرر علي نفس الصورة، وما من تصوير لتجربة شعورية يمسك بحقيقة فى كليتها ولا فى حركتها الدائبة. وإن كان هذا لا يلغى بحال صلاحية تصوير التجربة.

تربكنى المرأة فى الخمسين التى تطل علىّ من هذه اليوميات وتفرحنى وأنا فى الستين. تفرحنى بقدرتها علي التجاوز، وتربكنى بحدة مشاعرها واستطالة هذه الحدة. أفتقد فى يومياتها ضحكتها التى تجاوزت بها كل شىء ، وأعرف الآن أن لحظات تعاستها قد اندرجت فى عشرات من لحظات الفرحة والحماس والاهتمام بما هو خارج عنها. وتخيفنى فى كل الحالات النهائية التى تكتسبها المشاعر العابرة علي الورق.

أرصد مبتسمة ميل المرأة فى الخمسين إلي التنظير، ولا أعود بحاجة إلي الاعتذار عن هذا الاتجاه الذى ظل يلازمنى، أدرك بعد قراءة اليوميات أن التنظير كان دائما وسيلتى كإنسان للفهم وللتجاوز عن طريق الفهم، وأقول ربما أفاد الناس ما أفادنى، بالرغم من إدراكى أن التنظير ينطوى بالضرورة علي التبسيط والتسطيح، ويخضع بالضرورة للتغيير والتطوير. ويذكرنى هذا بملاحظة أستبقيها حتي نفرغ من هذه اليوميات.

1974

27 سبتمبر 1974

اليوم صباحا وأنا بين اليقظة والنوم، وجدت نفسى أكرر عبارة شىء ما خطأ، شىء ما لا يستقيم، بعد شهر من عودة ابنتى حنان من غيبة استطالت عامين. وللمرة الثانية فى حياتى تعاودنى الرغبة فى تسجيل يومياتى ومواجهة الذات علي الورق. وهذا يعنى أنى أقف علي حافة الانهيار وأنى أسعي واعية للإفلات.

تعّين علىّ اليوم أن أزيل تراب عشر سنوات عن يومياتى الأولي ولم أفعل. تسع سنوات لا عشر، لم أجسر علي الاقتراب من الورق فى العام الذى أعقب موت زوجى أحمد من عشر سنوات. ومع انقضاء العام تأتي علىّ أن أسجل يومياتى. كانت ابنتنا حنان فى السادسة عشرة وأحوج ما تكون إلي أم قادرة علي الوقوف علي قدميها.

ويتأتي علىّ الآن بعد أربع سنين من زواج ابنتى أن أواجه نفسى علي الورق من جديد.

أتوقف لأتساءل: ألم تكن الرسائل التى أدمنت كتابتها لمدة سنتين طيلة غيبة حنان نوعا من المذكرات؟ يزعجنى السؤال ويزعجنى أكثر استخدام الإدمان فى صيغة السؤال. فى وعيى اندرجت الرسائل التى كتبتها علي طيلة سنتين فى إطار دورى كأم تسعي بكل كيانها لإنجاح زيجة ابنتها، وفى إطار حاجتى كإنسانة للإفضاء وللتواصل مع ابنتى، فى فترة تداهمنى فيها كآبة الشيخوخة وتتضاعف فيها الحاجة للإفضاء والتواصل.

وعلىّ أن أقرّ الآن بأن تدبيج الرسائل يوما بعد يوم وصفحات بعد صفحات تجاوز أحيانا هدفه، وتحول أحيانا إلي غاية فى حد ذاتها. تكاثرت الخطابات رغما عنى كما تتكاثر النباتات الوحشية. ولكنى لم أقصر يوما فى واجبى، ولا تخليت يوما عن واجبى كأم يعتمد وجودها علي وجود ابنتها سعيدة ومتحققة: لم أودع صندوق البريد إلا القليل من الخطابات التى كتبتها فى غيبة حنان.

ولكن ما هى دلالة بقية الخطابات التى ترقد فى ملفات ثلاثة؟ عنوان الأول، خطابات كتبت لترسل لحنان ولم ترسل (أقسي من أن ترسل) والثانى، خطابات كتبت لكيلا ترسل (علي غير ما هى فى الحياة، تكتسب لحظات التعاسة علي الورق رسوخا ونهائية) وعنوان الثالث، خطابات غير موجهة إلي أحد (لحظات التعرية الكاملة للذات التى لا يجوز لإنسان آخر الاطلاع عليها).

$ $ $

أدركت أن العلاقة بين حنان وزوجها قد استقامت فى البعد، كما أردت لها أن تستقيم، بمجرد أن لمحتهما يعبران الممر المؤدى من صالة المطار إلي الشارع. شىء ما فى الطريقة التى دفعا بها عربة الحقائب

فيما بينهما جعلنى ألهث ارتياحا كمن جري مشوارا طويلا وآن له أن يستريح. بمدي ما استشعرت الذنب والطبيب يشخص سبب اختلال علاقة حنان بزوجها، بمدي ما شعرت بالارتياح وأنا أرقبهما يدفعان عربة الحقائب فيما بينهما، ووحدة تجمعهما، تميزهما، تعزلهما معا عن بقية البشر.

$ $ $

لم أستشعر القلق لحظة رصدت تحفظ حنان تجاهى عقب عودتها من السفر، آمنت بأن ما بينى وبين ابنتى لا ينفصم. عشت معها كل لحظة من لحظات حياتها مكتملة، وهى تستعد لكل امتحان، وهى تترقب فى خوف نتيجة كل امتحان وهى تتجاوز بنجاح كل امتحان وهى تلتحق بالجامعة وتتخرج وهى تكبر وتتحقق. علمت ابنتى وعلمتنى، قرأت معها كل كتاب وتبادلت معها كل انطباع. عانينا معا أشواقا لا تشبع للمعرفة، وحللنا معا الأغوار السحيقة للنفس البشرية. اكتشفنا الدنيا معا وتصفحنا الخرائط واقتسمنا التعليقات. فى زحمة الناس تلتقى عيوننا ترصد وتسجل وتتلهف للحظة تنداح الزحمة وتلتقى رؤوسنا ونحن نعلق علي ما حدث. نفضى، نتواصل ونضحك. تداخل نسيج حياتى ونسيج حياة حنان حتي كدنا نصبح واحدا.

فرحت وحنان تلتقى بهشام فى الكلية، وتخبطت معها وهى تتخبط، تتلمس بين الشك واليقين موقع الأقدام، ولم أتخبط. استرجعت معها كل حركة من حركات هشام وكل لفتة، وكل كلمة فى خطاباته الخجلة الوجلة بعد أن سافر عقب التخرج للعمل فى الخارج، وأشبعناها تحليلا ونحن نحاول قياس مدي عمق عاطفته نحوها.

ولم يكن بُعد هشام عن حنان بقادر علي الحد من حيويتها وانطلاقها ولكن هذا البعد حد من قدرتها علي أن تحب من جديد.

وتأتي علىّ أن أعلمها أن تمد يدها ولا تنتظر انتظار العاجز ليد تمتد إليها طوال الطريق. علمتها أن تحسم، أيا بلغت قوة الحسم، فإما نهاية قصة حب طفولية لم تتبلور بعد فى كلمات، وإما بداية حب يقوم علي أركان اليقين من مشاعر الآخر. ومدت حنان يدها الخجلة المتخبطة لتلاقيها يد هشام، ممتنة، فى منتصف الطريق. وعاد هشام من الخارج ليعلن خطوبته علي حنان بعد أيام.

لا لم أستشعر القلق لحظة رصدت تحفظ حنان تجاهى عقب عودتها من السفر. قلت الآن وقد استقامت علاقة حنان بزوجها، لم يبقَ سوي أن تستقيم هذه العلاقة بالعالم الخارجى، وتعود إلىّ كاملة مزدهرة قادرة علي العطاء.

اختنقت المرة بعد المرة بالحاجة إلي التواصل مع حنان دونما إشباع وتوهمت أنى أستطيع الانتظار إلي الأبد، وبهدوء وثقة، عودة التواصل والقرب مع ابنتى.

وكان أن قذفت حنان بالملفات الثلاثة بعد أسبوعين من عودتها. وجلست، بلا حياء، أرقبها تتصفح «رسائل لا يجوز لإنسان الاطلاع عليها». وكان أن أعادت حنان الرسائل فى اليوم التالى دون أن تقوي علي قراءتها.

$ $ $

عدت لتوى من العمل ومعى هذا الإرهاق العام الذى هو عرض من أعراض الشيخوخة ... أتساءل وأنا أستند إلي باب الشقة المغلق ورائى: لمَ يعاودنى أحمد فى الحلم وقد مات من عشر سنوات؟ ولم يعاودنى الآن وعلاقتى تتعثر بابنتنا حنان؟ أتساءل مازلت، عن مغزي الطيور السوداء فى حلم أمس الأول. هل هى طيورى أم طيور أحمد أم

طيورنا معا؟

يخطر ببالى وأنا أستند إلي ضلفة الباب المغلق إمكانية إدراج يومياتى هذه فى نفس الدفتر الذى كتبت فيه يومياتى 1965 بعد موت زوجى أحمد. أفتح درج المكتب الذى لم أفتحه من تسع سنوات. أرقب الدفتر بغلافه الأسود السميك يرقد فى جوف الدرج وأقفله دون أن أزيل عن الدفتر طبقات من تراب يتعين إزالتها.

$ $ $

يستوقفنى اليوم زميل عائد من السعودية وأنا أمر بالردهة الرئيسية فى مكان عملى ... يسألنى بعد السلامات والتحيات عن إنتاجى الروائى الأخير. بداياتى كانت واعدة، شد ما كانت واعدة، يقول، وأتمتم بشىء غير مفهوم كما اعتدت أن أتمتم بعد أن تحولت البدايات الواعدة إلي نهايات. ونفترق وأنا أردد بينى وبين نفسى: شىء ما خطأ، شىء ما لا يستقيم، ولا علاقة لهذا الشىء، هذه المرة بابنتى.

لا أدين بالاعتذار لأحد، لن أحتج لانشغالى بدور الأم، فأنا أعرف أن مسئوليتى نحو الآخرين لا تعفينى من مسئوليتى نحو نفسى. لن أحتج بكآبة الشيخوخة فأنا أعرف أن العمل هو الكفيل بالخلاص. أعرف هذا عقليا، وأتساءل هل استقرت هذه المعرفة فى وجدانى وشكلت سلوكى؟!

يعزينى أنى حاولت، لم أكفَّ عن المحاولة، أوراقى مفرودة علي مكتبى، علي سريرى، يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة، وأنا لا أكف عن العمل، أعدل وأبدل، أشطب وأغير، لا أرضي عن شىء ولا أرتضى شيئا، أسعي إلي كمال لاطاقة لى به، أو كمال لا وجود له فى هذه

الدنيا. أترك عملا وأسعي لآخر، علي أمل أن يكون أفضل. والبدايات تتكاثر، بدايات بعد بدايات لا يكتب لأى منها الاكتمال، وأنا أعمل ضد نفسى لا من أجل نفسى، أعمل وأنا شبه موقنة أن شيئا ما لن يكتمل لى، أعمل منوطة بهزيمة نفسى وكأن شيطانا يركبنى.

مالم أتمكن من مواجهة أسباب ودوافع هذا اليقين بالفشل الذى يلازمنى لن يكتمل لى شىء أبدا.

$ $ $

- التصاق جنينى بالأم يترتب عليه انعدام فى النضج العاطفى.

قال الطبيب وهو يشخص سبب اختلال علاقة ابنتى حنان بهشام، بعد سنة ونصف من زواجها. وصرخت مفجوعة رافضة تشخيص الطبيب. كان تشخيص الطبيب بمثابة إشهار إفلاس لى كأم، وبمثابة هزيمة لكل الأهداف التى استهدفتها فى أسلوب تنشئة ابنتى، واعية ومتعمدة. جاهدت عمرى وما زلت أجاهد ليكون لابنتى كيانها المستقل عنى وعن الآخر، كيانها الذى يقف موقف الندية منى ومن الآخر.

وعيت تماما خطورة اتكالها النفسى علىّ بعد موت أبيها وهى فى السادسة عشرة. ولم أجد قط حاجة إلي ممارسة هذا الوعى ... كان لحنان دائما عالمها المستقل عن عالمى، تتألق فيه محبة ومحبوبة. واتسع هذا العالم بعد التخرج والعمل حتي كدت لا أراها يوميا إلا فى الساعات الأخيرة من الليل. وكان تعبير «التسكع» من تعبيراتها الأثيرة إن لم تنشط فى هذا الاتجاه أو ذاك من اتجاهاتها الثقافية المتعددة والمتجددة، وإن لم تنشغل بهذه المهمة أو تلك، أو تجتمع بهذه الشلة من الصديقات أو الأصدقاء، كانت تفسر غيبتها عن البيت بقولها:

ـ كنت أتسكع فى ميدان التحرير ... فى خان الخليلى ... فى الهرم ... عند تمثال نهضة مصر ... علي النيل.

كانت كفتاة تحب الزحمة والناس ومعالم القاهرة. ولم أرد لشىء ما أن يعوق انطلاقتها العارمة ولا أن يوقف هذا النهم الذى لا يشبع لاكتشاف الحياة: عيناها تضويان وحدقتاها تدوران، لا تستقران أبدا فى موضعيهما، تستقطبان الضياء من الناس والأشياء وتعكسان الضياء علي الناس والأشياء.

$ $ $

ـ أى التصاق جنينى؟

صرخت مفجوعة غير مصدقة. كان لى سنة ونصف أقف علي أطراف أصابعى، أصالح وأوفق وأنصح وأعلم وأحتضن وأدلل وأستمع إلي شكوي هشام ساعات وشكوي حنان، أقف فى صف حنان مرة وفى صف هشام مرات، أعمل جاهدة علي إنجاح زيجة تتوفر لها كل مقومات النجاح ولا تنجح. أعيد الأشياء إلي نسبها الطبيعية بين طفلين يعيشان المثال لحظة، وواقع اصطدام الأنا بالأنا لحظات، طفلان ترعبهما الهوة بين المثال والواقع، يتخبطان حبا وخوفا علي ضياع الحب.

واستوعبنى الدور تماما وأنا أقوم بدور ربان السفينة لتبحر، حتي قال الطبيب:

ـ التصاق جنينى ...

وانخرطت منهكة مهزومة فى بكاء طويل، وتلقفتنى حنان فى حضنها تهدهدنى وتدللنى، وكأن المشكلة مشكلتى لا مشكلتها.

- حنان ...

قلت ضاحكة باكية وقد استرخيت فى حضنها:

- حنان ... متي وكيف؟ لقد كنت غائبة عنى فى الشارع طوال الوقت؟

ولمعت عينا حنان يومها بخبث الطفلة وقالت:

- كنت أملك أن أغيب، لأنى علي يقين أنك موجودة تنتظريننى، أضع رأسى علي صدرك ونحن نتبادل قبل أن ننام الحديث.

وكان أن جاهدت حنان بعدها للحصول علي منحة دراسية. وسافرت وهشام لاستكمال دراستهما فى الخارج.

$ $ $

التواصل مع حنان الذى كان يتأتي لى سهلا حلوا طليقا كالنبع الجارى لم يعد يتأتي. فى كل مرة أحاول الولوج إلي عالم حنان الداخلى تخطئ كلماتى وتصيب، من حيث لا أدرى، موطنا للألم. فى كل مرة تخرج كلمات حنان مذبوحة، وكأنى أقتطع الإفضاء من لحمها.

أصبح الكلام، مجرد الكلام، مع حنان كالمشى علي الشوك.

$ $ $

باترة ابنتى، كحد السيف باترة، أيا بلغت قسوة البتر علي ذاتها باترة. تحمل نفسها دائما وأبدا أكثر مما تطيق. يخيل إلىّ أحيانا أنها تنام وتصحو، تجلس وتمشى، وهى تكز بأسنانها علي شفتها السفلي متحدية لكل ما هو قاصر فى هذه الحياة وظالم، لكل ماهو فاسد

ومزيف. يخيل إلىّ أحيانا أن سوطا وهميا يسيطها لتنجز أكثر ما يمكن إنجازه، أفضل ما يمكن إنجازه، متجاوزة لكل طاقتها. وحين يضنينى شعورها الحاد بقصر الحياة تقول:

ـ لى رفاق ماتوا فى حرب 67 فهل مات لك فى سن الشباب رفاق؟

وأشفق أن أقول أورثنى استشهاد الرفاق فى الأربعينات فى المظاهرات والسجون الشعور بالامتداد إلي المستقبل. وأشفق أن أقول ونحن نقترب محبطين من الذكري الأولي لانتصار أكتوبر الموءود ان الإحباط العام هو الذى يورث قصر العمر لا الاستشهاد. ويبقي الإحباط ما لم يندرج شهداء 67 و 73 فى سياق مد شعبى جديد ينتشلنا من الوضع الذى تردينا إليه، متفرجين.

بعد هزيمة 67 تغيرت الكثير من منطلقات حنان بلا رجعة، قالت لى فى لحظة إفضاء فى أعقاب الهزيمة:

ـ سرقوا الفرحة من جيلى، ولن تكتمل لواحد منا أبدا ضحكة.

وبعد شهور من زواجها قالت:

ـ ما هى السعادة؟

مشككة فى دلالة الكلمة علي أى معني محدد، ونحن بمعرض مناقشة هدف أى ارتباط إنسانى قائم علي الحب بين الرجل والمرأة. وتأتي علىّ أن أتنازل عن منطلقين من منطلقاتى الأثيرة لكى تبدأ المناقشة من أرضية مشتركة. استبعدت السعادة واقترحت استخدام تعبير التكامل أو التحقق النفسى كبديل. ورفضت حنان اقتراحى، وذهبتْ إلي أن التكامل والتحقق النفسى منطلق آخر من منطلقات

الكبار. وبدأت المناقشة والهدف الأسمي للحب والزواج هو التوصل إلي حالة من التوازن النفسى والحفاظ علي هذه الحالة.

يتأتي علينا أن نتعلم من أولادنا وإلا عشنا بطعم المرارة فى حلوقنا. منطلق حنان منطلق صحى سليم يجمع بين تقبل النسبى وصرامة الالتزام. ومنطلقى، بلا وعى، هو منطلق المطلق المستحيل. استخدامى لتعبير السعادة مثلا ليس سوي بادرة بسيطة من البوادر التى تدل علي تشبثى الساذج بكل ما هو مطلق.

المطلق الآن فى عقلى قرين الموت، رهين برفض قانون الحياة المحكوم بنسبية الزمان والمكان والتغير الدائب. ولكن هل هو كذلك فى وجدانى؟

$ $ $

ما مغزي الطيور السوداء فى حلم أمس الأول؟ أعود وأتساءل للمرة الألف. أسجل الحلم هنا فى محاولة لفك طلاسمه. غالبا ما أنسي أحلامى بعد اليقظة ولكن حلم أمس الأول محفور فى مخيلتى.

رأيت زوجى أحمد حيا يجلس فوق صوان ملابسه يضيف تركيبة كهربية جديدة، فى نفس الحجرة التى كان يعيش فيها. فى الحلم أدركُ أنه مريض وإن كان قد تجاوز أزمة صحية. أفكر أن من الممكن أن يتجاوز أزمة أخري وأن تمتد حياته، وتسرنى الفكرة. يغادر أحمد الغرفة ويغيب عن مدي رؤيتى. ألاحظ أن الصوان والأرضية يحدثان مسا كهربيا أستشعره وأنا أمر بالردهة خارج الغرفة (مسا خفيفا ولكنه محسوس) أصيح أبلغ أحمد بوجود المس الكهربى.

ينقلنى المس إلي مرحلة أقرب إلي الوعى، وأنا الآن لا أستشعره ألاحظ شيئا جديدا. طيور ترقد علي الصوان حيث جلس أحمد سابقا،

سوداء أشبه بالبط الأسود وإن لم يكن بطا، طيور يبدو أن مكانها الدائم هو هذا المكان. لم ألحظها فى اللقطة الأولي وأحمد يجلس علي الصوان، وإن لم أستغرب وجودها وقد بدأت تنزل نتيجة للمس الكهربى صفا بعد صف، وتبقي نصفها تقريبا فى مكانه.

أقف فى الردهة مرتبكة وأنا أتعثر فى طير من هذه الطيور، متحيرة لا أعرف كيف أجمع شتاتها لأعيدها إلي مكانها، الذى يبدو فى الحلم مكانا دائما مرئيا وغير مرئى، ومحددا بحيث تختل الأشياء إذا ما اختل. أعاود النظر إلي غرفة أحمد ويواتينى الإدراك أنه مات.

فى اللقطة التالية لا أعد أري الطيور السوداء ... تسترعى انتباهى مكتبة خاوية فى غرفة أحمد (المكتبة فى الواقع وهى موجودة فى الردهة). أقرر وقد وعيت أن أحمد قد مات، أن أنقل المكتبة الخاوية إلي غرفتى لأضع فيها بقية من كتبى. لا ألبث أن ألاحظ ما لم ألحظه من قبل، المكتبة ليست خاوية كما رأيتها فى اللقطة السابقة. المكتبة مليئة بحزم أوراق فى حجم الفلوسكاب، وكل حزمة ملفوفة بأوراق سميكة من اللون الأزرق اللبنى (لون الخطابات). ومصفوفة علي شكل كتب. يخطر فى بالى فى ذات الوقت الذى ألمح فيه حزم الورق، وأنا فى مرحلة أقرب إلي الوعى، أن لامكان فى غرفتى لمكتبة جديدة.

يحيرنى الحلم. لم يزل. عادة ما أستطيع أن أفسر أحلامى أو علي الأقل بعضها، بالاستعانة بأوليات المنهج الفرويدى وبعض الإدراك اليومى. غالبا ما أستطيع أن أرد هذا الحلم أو ذاك إلي هذا القلق أو الخوف المعين أو ذاك، أو هذه الرغبة الدفينة فى تحقق هذا الشىء أو ذاك، ولكنى لا أستطيع أن أرد حلمى هذا إلي شىء .

وأنا أحاول هنا أن أخرج بأسئلة يفتقر معظمها إلي إجابات محددة. الطيور السوداء هى قطعا طيورى بمدي ماهى طيور أحمد (تعثرت

بأحدها فى الردهة). ولكن إلام ترمز هذه الطيور؟ الخوف من الفقد، من الموت؟ فقد من؟ زوجى أحمد فقدته بدل المرة مرتين، يوم انسلخ عنى عاطفيا قبل أن يموت بسنين، ويوم مات قبل أن أستكمل معركتى المستميتة لاستعادة المستحيل. موتى أنا؟ لم أنخرط بعد فى الشيخوخة إلي حد الخوف من الموت.

الحديث التليفونى الذى تلقيته من سمير منذ لحظات يذكرنى بأنى مازلت امرأة مرغوبة، وعرض سمير بالزواج مازال قائما رغم رفضى له المرة بعد المرة.

- فكرى فى الأمر بجدية، سمير أحبك دائما ومازال يحبك.

قالت حنان، وأيد هشام القول فى حماس، واعترضت سوسن صديقة حنان وهى تقول:

- المهم أن تبادله هى نفس المشاعر.

وتساءلت سوسن وهى تضحك إن كان هشام وحنان يريدان الخلاص منى والسلام، وحسمت أنا المناقشة فى هدوء قائلة:

- سمير لايستطيع أن يمنحنى ما أنا بحاجة إليه.

وتوهمت لحظتها أنى أعرف تماما ما أريد، ولم أعد متأكدة وأنا أتعثر فى طيورى السوداء. إلام ترمز هذه الطيور؟ أهى خفايا النفس البشرية التى ترقد طبقة فوق طبقة فى أغوار اللاوعى؟

وأكتشف الآن أنى أسقطت من كل محاولاتى السابقة لتفسير الحلم شيئا أهم من الطيور السوداء. المهم فى الحلم هو هذه الحزم من الأوراق وارتباط ظهورها المفاجئ بالإقرار بأن حجرتى لا تتسع لمكتبة

جديدة. ما عسي أن تكون ماهية هذه الحزم من الأوراق وعلام تدل؟ ولم كانت ملفوفة بورق بلون ورق الخطابات؟ أهى أوراق مكتوبة تشير إلي ماضٍ مثقل لا أملك الإفلات منه؟ أم هى أوراق بيضاء (إمكانية الكتابة)، وتشير إلي تطلع لمستقبل خلاص لا أملك نفسيا الولوج إليه (حجرتى لا تتسع لمكتبة جديدة). أم هما الاثنان معا؟ وما علاقة كل هذا بتعثر علاقتى مع ابنتى حنان؟ وبكآبة الشيخوخة التى تعاودنى فى موجات أحدّ وأمرّ؟

تبقي الأسئلة بلا جواب.

$ $ $

ظلت حنان تردد منذ عودتها السؤال":

ـ هل تخليت عنك يا أمى بطريقة أو بأخري؟

وهى ترفض بإصرار الإقرار بأنى أمر بآلام الشيخوخة، وتستبعد ضاحكة مثل هذا الاحتمال، وترجع حالة الاكتئاب التى أمر بها إلي غضبى منها أو إلي ما قد يكون قد التبس علىّ من تصرفاتها بعد عودتها. وهى تسعي لتفهم، لا تريد لتصرف من تصرفاتها أن يغضبنى أو يجرحنى. وأوضحت لحنان المرة بعد المرة أنها جزء من حياتى، وليست كل حياتى، وأن اهتمامى بها جانب من اهتماماتى وليس كل اهتماماتى، وأن كآبة الشيخوخة عرض فيزيائى بحت لن يلبث أن ينقضى مع الأيام، وهو حدث يعرض لكل امرأة فى سنى. وأن حالة الكآبة التى تنتابنى جاءت نتيجة لتراكم عوامل عديدة لم تساهم هى فيها إلا فى القليل.

وربما كان هذا الكلام صادقا، وربما لم يكن. علىّ أن اختبر هذه

الحقيقة، فأنا أكتب هنا لأفهم، لا لأتقبل مسلمات تفرض علىّ أو أفرضها أنا علي نفسى.

28 سبتمبر 1974

قرأت ما كتبت بالأمس. أهرب من الحقائق، ولا أعرف حتي من أى حقائق أهرب. إدراك هلامى ومبعثر يتبدي فى هذه الصفحات التى كتبتها ولا يتبلور. كلمات تكاد تتجمع فى جمل مفيدة ولا تتجمع. كلمات قلتها أنا؟ قالتها حنان؟ وأسقطتها الذاكرة عمدا؟!

ألف وأدور حول الموضوع دون أن أتغلغل فى وقائع تضعنى فى صميم صراع يمزقنى، صراع يتأتي علىّ إن أردت حقا تجاوزه، أن أحدد طبيعته وأن أبلوره فى كلمات. أسطر حلمى بزوجى أحمد فى صفحات وأتجاوز حدثا محوريا فى علاقتى بابنتى فى سطور. أكتب:

«وكان أن قذفت ابنتى حنان بالملفات الثلاثة بعد أسبوعين من عودتها وجلست، بلا حياء أرقبها تتصفح (رسائل لا يجوز لإنسان الاطلاع عليها). وكان أن أعادت حنان الرسائل فى اليوم التالى دون أن تقوي علي قراءتها».

لم أتوقف لأتساءل لِمَ فعلت أنا هذا الفعل المجنون، ولِمَ فى هذا التوقيت بالذات وابنتى تخرج من مرض عضوى لتدخل فى الآخر. لم أتوقف لأتساءل أى ريح عاتية تحملنى، تسلبنى إنسانيتى، تخرجنى عن حدودى، تحبسنى وحنان فى بئر، تجعلنى أحرق وأحترق دون أن أدرى؟ لم أتوقف لأتساءل فى أى سياق مجنون اندرج هذا الفعل المجنون، ولا إلي أين يقودنى هذا السياق؟ ما من فعل ينشأ من فراغ، وما من فعل لا يندرج فى سياق. أى قسوة تنطوى عليها أعماقى وكيف وانتتى هذه القسوة فى مواجهة ابنتى؟ كيف أصالح بين رغبتى الواعية فى

الانسلاخ عن عالم ابنتى لتستكمل ما بنت فى غيبتى، وبين رغبتى العارمة فى إملاء جحيمى الداخلى عليها؟ تعمدت أن أغيب عنها وهشام لمدة أيام فى الإسكندرية، وعدت لأملى عليها «رسائل غير موجهة لأحد».

أكانت قسوة أم استغاثة مستميتة لغريق؟ أتساءل؟

$ $ $

لا أملك التوقف لاستجماع الأنفاس ...

- أرجو ألا يكون هذا بداية تخليك عنى.

تقفز جملتى إلي الوعى من أغوار النسيان، تثقب كالرصاص عقلى ... يداى تتشبثان بعجلة القيادة، وكأنها طوق نجاة، كيانى يتركز فى عينى، وعيناى علي الطريق خشية تصادم يبدو أن لا مفر منه، وأنا أقول لحنان:

- أرجو ألا يكون هذا بداية تخليك عنى.

حنان وقد صدمها قولى، تلتزم الصمت بعد أن أفاضت فى شرح الموقف «لكيلا يلتبس الوضع». من الضرورى أن تحد من رغبتها الطفولية فى الالتصاق بى لتحمى هشام من الألم، ولترسى التوازن المطلوب فى العلاقة ما بينها وبينى من ناحية، وما بينى أنا وبين هشام من ناحية أخري، هذه العلاقة التى أصبحت بدورها حيوية لكلينا. وصمت ثقيل يسود السيارة. ووجهى يطالعنى فى المرآة بشعا.

كان هذا قبل أن أقذف بقطعة من لحمى تنزف دما ... لا لأحد.

$ $ $

لا أعرف كيف غاب عنى قولى لحنان بعد عودتها بأيام:

- أرجو ألا يكون هذا بداية تخليك عنى.

فى أى أغوار دفنته وحنان لا تكف تقول:

- هل تخليت عنك يا أمى بطريقة أو بأخري؟

فى أى أغوار دفنته وحنان لا تكف تتساءل هل يشكل هذا القول نقطة تحول في علاقتى بها، وأنكر أنا، صادقة، المرة بعد المرة أهمية هذا التساؤل. كنت مقتنعة تماما بسلامة موقف حنان وبضرورته، ومقتنعة تماما بصدور هذا الموقف عن منطلق لاأنانى يكلفها الكثير. ولم أعِ سوي أن الأشياء لا تستقيم ودأبت علي القول:

- أنا مريضة يا حنان وأنت مريضة، ومن الصعب أن نمد أيدينا إلي البعض الآن.

ودأبت علي القول وأنا أتقوقع وأتباعد:

- أن أراك ساعة فى الأسبوع مزدهرة ومتحققة، خير لى من أن أراك كل يوم مريضة ومبتئسة.

وبدا كل شىء منطقيا وعاقلا، وبدا كما لو كنت أستطيع أن أنتظر إلي الأبد فى هدوء وثقة، عودة التواصل بينى وبين ابنتى.

ولكنى أعى الآن أنى تغيرت، وأن تلقائية الأشياء ضاعت بينى وبين حنان من يوم قلت هذا القول. تحفظت فى علاقتى بابنتى وتلا التحفظ حالة تقوقع دفاعا عن النفس.

وحاولت حنان منذ بداية عودتها التوصل إلي عالمى الداخلى المرة

بعد المرة، ورفضت أنا عامدة أن أساعدها. شعرت بأن من الإجرام أن أضاعف حملها النفسى، وهى تترنح فعلا لا مجازا تحت وطأة هذا الحمل. ثم كان أن توقفت حنان عن المحاولة بعد أن صفعتها بحقيقة عالمى الداخلى.

تراجعت حنان فى رعب وخوف مازال يتملكها حتي اليوم، تراجعت فى محاولة لتحاشى ألم لاطاقة بها علي احتماله، وهى مبررة فى هذا التراجع تمام التبرير، فهناك حد لما يستطيع الإنسان تحمله من ألم بشرى.

$ $ $

فى محاولة للدفاع عن صورة الذات، للإبقاء علي المعتقدات أو بالأحري الأوهام الثابتة عن الذات، يعمل العقل علي صد الإدراك، مرة بعد مرة، حتي لا يطفو علي السطح.

إدراك الأشياء المؤلمة لا يتأتي إلا بإرادة الإنسان الواعية وسعيه الدائب إلي بلورة الإدراك. مثل هذا الإدراك يتشكل وفقا لصراع مع ميكانيكية للعقل شديدة التعقيد تدفن الانطباعات فى أغوار النسيان، انطباعا بعد انطباع وتحول بين الانطباعات والتراكم والاندراج فى سياق متصل ومفهوم.

1 أكتوبر 1974

انفردت بحنان مرتين لمدة نصف ساعة، بالأمس حين زارتنى واليوم صباحا وأنا أوصلها إلي مبني إدارة البعثات فى الطريق إلي عملى. غالبا ما أراها مع هشام أو فى جمع من الناس، إما فى بيتها وإما فى بيتى. يخيل إلىّ أحيانا أنها أصبحت تتحاشي الانفراد بى.

دخلت حنان بالأمس صباحا فى الموضوع مباشرة. كانت حالتى فيما يبدو قد شخصت فيما بينها وهشام، وتمخض التشخيص عن علاج ناجح جاءت حنان تطرحه علىّ.

كان لدىّ الكثير مما أردت أن أقوله لابنتى، ولكن حنان التى جاءت فى مهمة عاجلة لإنقاذى، بدت متباعدة تباعد الطبيب، محايدة حيادة. سريعة حاسمة وصارمة. افتتحت حنان الجلسة قائلة:

ـ آن الأوان لكى تكملى ما بدأت.

وتطلعت إليها متسائلة أىّ من بداياتى التى لا تكتمل تعنى؟ وأجابت حنان وهى تري نظرة التساؤل فى عينى:

ـ سيرتك الذاتية التى أهملتيها منذ سنين.

وتأسيت لأنها لا تعرف شيئا عن بداياتى العقيمة الأخري. وتذكرت أنها اطلعت علي صفحات من سيرتى الذاتية التى لم أقربها منذ خمس سنوات.

وغبت عن حنان فى دهاليز العقم ليلة بعد ليلة، وهى تفيض فى شرح الإشباع الذى أستشعره فى الكتابة الفنية ومزايا الانشغال بكتابة سيرتى الذاتية. ورفعت رأسى بعد طول إطراق وقلت فى سخرية خفيفة لم تفت حنان:

ـ تعنين كنوع من اللهو أو التلهية؟

ـ التلهية ذاتها هو ما تكتبين الآن.

قالت حنان فى نهائية وصرامة، وهى تشير إلي هذه اليوميات.

وتساءلت أنا :

ـ هل قرأت يومياتى لتصدرى هذا الحكم؟

ـ ولكنى قرأت الرسائل.

واستدركت وصوتها يحتد :

ـ قرأت ما يكفى .. حرام ..حرام ما تفعلينه بنفسك ... هذا انتحار.

وقبل أن تهبط علينا سوسن (تتعمد حنان دائما أن يهبط علينا أحد)، قلت كلاما كثيرا لا أذكر الآن فحواه ولا حتي هدفه. ربما كان دفاعا عن يومياتى هذه، وربما كان تبريرا لانعدام قدرتى علي الكتابة الفنية الآن. وقالت حنان شيئا بدا فى غاية الأهمية إذ ذاك، وخذلتنى ذاكرتى وأنا أحاول أن أستعيده بالأمس.

$ $ $

بت ليلتى غاضبة غضبا جنونيا من حنان، ربما لأنى لم أستطع أن أصل إليها، كما فسرت هى غضبى هذا الصباح ونحن فى الطريق إلي مكتب البعثات. وكان شعورى وأنا ألجأ إلي فراشى شعور الغريق يتشبث بقشة، وأعز أعزائه يحاول أن يسلبه القشة. وأقسي ما فى الأمر أنه يملك أن يفعل. حنان تملك أن تسلبنى، غير واعية وواعية أحيانا، هذا الاهتمام أو ذاك، بهذا الشىء أو ذاك.

ولست متأكدة الآن وأنا أكتب هذه اليوميات من قدرتى علي الاستمرار. ولكن يتأتي علىّ أن أواصل رغم كل شىء ، لأن خلاصى يعتمد علي أن أفعل.

$ $ $

ونحن نعبر كوبرى قصر النيل صباحا تذكرت فجأة ما قالته حنان بالأمس وأسقطته من ذاكرتى. قالت حنان بالأمس:

ـ من الخطأ الفادح الاعتماد علي شخص واحد. ماذا يحدث لو اعتمد علىّ هشام اعتمادا كليا، وحدث أن مت فجأة.

وسألت والعربة تتوقف فى إشارة المرور المؤدية من شارع قصر العينى إلي مجلس الأمة، عما عنته حنان بالأمس بهذا القول. وتراجعت فى مقعد السيارة منزعجة وتمتمت بارتباك:

ـ لم أعنِ اعتمادك أنت علىّ، ربما أردت القول إن من الخطر الاعتماد علَي شىء واحد، لا شخص واحد.

وانحسر الضوء الأحمر، وقبل أن يرسب ما قالته حنان فى وعيى توقفت العربة، وانسلت من السيارة مهرولة إلي فناء مكتب البعثات.

4 أكتوبر 1974

لم أستطع أن أكمل ما بدأت فى واحد أكتوبر. أكمل الآن، لا لأنى أريد، بل لأن من الضرورى أن أفعل. أى قوة شيطانية دفعتنى بالأمس إلي الاستمرار فى عملية تعذيب للذات والآخرين استمرت ساعتين؟

بدأت أنا الجلسة فى بيت حنان كقاضٍ يجلس علي منصة الحكم يصدر الأحكام باردة بلا انفعال، وأنهيتها شَاكية منهارة، عارية بلا خجل ولا حياء، فاضحة لمدي حاجتى ومستجدية العطاء.

ربما لو كنت بالأمس أتحدث أو أتواصل مع أحد لأرهقنى الوضع لحد الإغماء ولكنى لم أكن أتحدث أو أتواصل، كنت أفرغ شحنة من

الغضب طال كبتها، ومن الألم ومن الإشفاق علي الذات ومن الشعور القاتل بالوحدة وبالعجز والفقد، وكأنما أفرغها علي الورق. كنت أصرخ فى صحراء، وبلا معني، بلا معني علي الإطلاق.

شىء ما مرضى فى رغبتى فى تعرية الذات، فى استباحة هذه الذات وهتك عوالمها الخاصة شديدة الخصوصية. شىء ما مرضى جديد وقديم. أذكر بألم موجع الغصة التى استشعرتها فترة من الزمن، لأن زوجى أحمد لا يرانى وأنا أمارس هذا الجانب من نشاطاتى أو ذاك.

ذبحت عوالمى قربانا تحت أقدام المعبود، وضعت لأنى لم أستبقِ لذاتى شيئا.

$ $ $

- وكأنك تحمليننى تبعة شعورك بالإحباط؟

قالت لى حنان، وكان تعليقها العاقل هو النتيجة الحتمية لمنطقى المجنون. بدأت الجلسة وأنا أقول فيما يشبه الموضوعية المحايدة التى هى فى الواقع قمة الأنانية:

- أتعرفين يا حنان ما هى صورتك عن الذات. أنت تتصورين انك إلهة صغيرة عليها أن تعدل مع الكل. ومن يبدأ برغبة العدل مع الكل لا يعدل مع أحد.

وتلوت حنان تحت وطأة الاتهام، وإن سايرتنى، وحاولت أن ترد الاتهام وجدانيا وعقليا إلي أسبابه فى سلوكها. أرجعت حنان ما سميته أنا بالألوهية إلي شعور بالأمومة يستوى عندها والشعور بالبنوة، وإلي حاجة لحماية الآخرين تستوى عندها والحاجة إلي حماية الآخرين.

وهى تريد أن تحمى هشام وتحتمى به، وتريد أن تحمينى وتحتمى بى. وللتدليل علي كلامها سألت حنان إن كنت لا أشعر برغبتها فى حمايتى، وهى تتوقع بالطبع الرد بالإيجاب، ووجدت نفسى أجيب بالنفى، فى برود، وصادقة.

$ $ $

أنكرت بينى وبين نفسى أهمية قولى لحنان: أرجو ألا تكون هذه بداية تخليك عنى. كان إنكارى إنكارا عقليا مفصولا عن وجدانى. كان رفضا لخوف عميق ينخر كيانى.

الخوف من فقد حنان فقدا معنويا يدمرنى. لم أكتشف هذه الحقيقة إلا أثناء انفجارة الأمس.

يتلوي خطى ويتعرج، يعلو علي السطر ويهبط. يتخبط الحرف فى الحرف، والكلمة فى الكلمة، يصبح خطى قبيحا ينزف ويستنزف.

الإرهاق يشل يدى. غضبتى بالأمس حررتنى من الإرهاق ومن الإدراك الإنسانى، وأنا لست بغاضبة الآن. أنا خائفة من مواجهة الحقائق، ومن ثم هذا الإرهاق الذى يشل يدى ويجعل خطى ينزف ويستنزف.

$ $ $

الوضع وضع ثالوث، الوضع الكلاسيكى للثالوث، ربما كنت لا واعية، وهذه حقيقة أواجه نفسى بها لأول مرة، أقول ربما، رفضت حقيقة وجود هذا الثالوث بمدي ما رفضه هشام.

ربما كان منشأ الأزمة هو شعورى بأن الأمر فى ظل الثالوث، حسم

ونهائيا لصالح هشام. أكرر كلمة ربما لأنى غير واعية بهذه الحقيقة علي الإطلاق.

إن كان فى هذا الافتراض شبهة حقيقية لانطوي الأمر علي هوة عميقة بين رغبة الأم العقلية فى أن تقطع الحبل السرى الذى يربطها بابنتها (أعنى الذى يربط ابنتها بها)، وبين رغبة الأم فى الاستئثار بابنتها والاحتفاظ بها فى رحمها. كنت أدفع حنان باستمرار لحسم الموقف لصالح هشام، فلماذا أغضب هذا الغضب الجنونى حين يتحقق هذا؟

الحسم يسلبنى الدور الذى اتخذته ذريعة لوجودى، أو بالأحري لانعدام وجودى فى السنين الأخيرة.

$ $ $

يتأتي علىّ أن أختبر كل احتمال، أن أصفع نفسى فى المرآة بصورة أقبح من صورة، أن أخلص للحقيقة ولو خلصت معها أنفاسى. لم يعد فى الأمر اختيار.

$ $ $

بالأمس فى نهاية الجلسة قالت لى حنان:

ـ ما زلتُ عاجزة عن الفهم. لِمَ يتسبب اقتراح استئناف سيرتك الذاتية فى هذه الانفجارة؟

وكانت حنان محقة فى عجزها عن الفهم رغم الأمثلة البلاغية التى سقتها للتدليل علي عجزى: الشخص المبتور الساقين المطلوب منه أن يلعب كرة القدم، والخراج المتقيح الذى يتأتي أن ينفجر، وما إلي ذلك.

وأتساءل اليوم لِمَ أنا مبتورة الساقين؟ ومن غيرى بترها! وأتساءل اليوم وخلايا جسدى تتليف الواحدة بعد الأخري لم أدمنت القيح؟ اقتراح كتابة السيرة الذاتية مظلوم ظلم الحسين إلا من حيث انطوي علي رفض جديد من جانب حنان لمحاولاتى لإملاء جحيمى الداخلى عليها.

غضبتى بالأمس لم تكن غضبة. كانت ابتزازا رخيصا. وتعرية الذات جزء لا يتجزأ من عملية الابتزاز. كنت كالمحبة المهجورة تتخبط ما بين التهديد الأجوف والرجاء العقيم. تبتز بتعذيب الذات والآخر ما توهمت أنه كان، ويستحيل أن يعود.

$ $ $

فى حومة الانفجارة قلت شيئا عن ضرورة الدفاع عن معقلى الأخير، وحقى فى الدفاع عن هذا المعقل، وصرخت حنان محتجة:

- غلط . غلط.

توهمت أنى معقل حنان الأخير حين تعثرت زيجتها. توهمت زوجى أحمد معقلى الأخير. وما من معقل أخير خارج عنا. قدرات الإنسان علي التجاوز هى معقله الأخير.

فى مخيلتى يرتسم الآن وجه حنان شاحب البياض وقد انسحب الدم منه كما لمحته فى آخر الجلسة ... لم يعد الدم ينسحب من وجه زوجى أحمد، تكرار مشاهد الابتزاز أكسبه المناعة فلم يعد يرانى ولا يسمعنى.

$ $ $

أزيل التراب عن دفتر يومياتى الأسود، يحمل تاريخ سنة 1965. أتصفح يوميات امرأة فى الأربعين من عمرها بعد سنة من موت زوجها . أتجاوز بدايات اليوميات إلي نهايتها . أتوقف عند صفحات أخيرة وأقرأ :

تأتي علىّ أن أخرج من البئر التى انحبست فيها طيلة زيجتى التى استطالت سبعة عشر عاما سعادة وتعاسة ، أو ما توهمت أنه السعادة والتعاسة ، وأنا أتحرق إلي مطلق مستحيل .

فقدت ذاتى بعد موت أحمد ، وظللت ما يقارب السنة أبدأ الجملة ولا أستطيع تكملتها ، أصارع لكيلا يغيب خبرى عن مبتدئى ، وأناضل لكى أجد بديلا لمسمي من مسميات الأشياء التى نتداولها يوميا ، يغيب عن ذاكرتى . تأتي علىّ أن أكون ، قلت وأنا أبدأ هذه اليوميات، من أجل ابنتى. وأقول وأنا أنهيها، من أجل نفسى. فاقد الشىء لا يعطيه. ولا يملك أن يهب الحب الحقيقى سوي الإنسان.

تأتي علىّ أن أستعيد قدراتى العقلية والحسية التى أهدرتها فيما سميته السعادة فى السنوات السبع الأولي، وتجنبا لألم فوق طاقة البشر، استطال بقية زيجتى، وأحمد ينسلخ عنى عاطفيا ولا يعود بحاجة إلىّ.

تأتي علىّ أن أستعيد الكلمات لأبنى من جديد لغتى التى لم تكن بلغتى وأنا أملك أحمد، وأحمد يملكنى، والتى لم تكن بلغتى وأنا أمارس لاواعية عملية ابتزاز طالت سنين، أستخلص من أحمد ما كان لى ولم يعد، أو ما توهمت أنه كان لى ولم يعد، صارخة محتدة باكية مستجدية.

تأتي علىّ أن أبنى من جديد، كما يبنى الطفل لأول مرة بيتا

بالمكعبات، نظام قيم الإنسان التى لم تكن بقيمى، وأنا، بلا وعى، أفنى وجود الآخر فى وجودى، وأنا بلا وعى، أفنى وجودى فى وجود الآخر. وأسمى الفناء توحدا ومطلقا وسعادة فوق سعادة هذه الدنيا.

وباختصار تأتي علىّ بعد موت أحمد، أن أولد من عدم وأن أكون ، أن أبذر بذورى فى الأرض، فى أعمق أعماق الأرض حتي لا تدوسها الأقدام. ولن يعاودنى الاطمئنان حتي أستشعر جذورى عميقة خشنة فى أحشاء الأرض.

ولم تكن تجربة المخاض علي الورق بعد موت أحمد بالأمر السهل. ليس من السهل أن يحاصر الإنسان بلا رحمة ذاته، مزيلا لطبقة جميلة من الوهم الزائف بعد طبقة، ودرع مزوَّقة لخداع الذات بعد درع. ولكنه أمر أساسى إن أراد الإنسان أن يولد من عدم. ليس من السهل أن يتوصل الإنسان لحقيقة أن ما سمّاه حبا كان ضياعا، وما سماه عطاء كان فناء فى الآخر ووأدا للذات، وما سمّاه توحدا كان موتا.

تحرقى للمطلق جعلنى أخلق سعادة موهومة وأعبدها، أجن فى محاولة استعادة وهم لم يكن أبدا. تحرقى للمطلق سلبنى إنسانيتى، حولنى إلي اللاشىء وأنا الخالق والمخلوق. تحرقى للمطلق كان فى واقع الأمر تحرقا للموت.

أستمر فى قراءة ملاحظات كتبتها امرأة فى الأربعين فى نهاية يومياتى لكيلا تنسي:

ملاحظات نهائية تكتب لكيلا تنسي

- فى أعماق كل منا ترقد رغبة كامنة فى الموت، فى الانزلاق إلي

حالة اللاشىء والتخفف من عبء الوجود الإنسانى والمسئولية الإنسانية تجاه الذات والآخرين. وتتضح هذه الرغبة فى السعى إلي التوصل إلي مطلق ما يلغى المكان والزمان. وإلغاء المكان والزمان لا يتحقق إلا فى حالة الموت. ولا ينبغى أن تخيفنا هذه الرغبة، فالإنسان الذى يعيها قادر علي تجاوزها.

- تنخرط فى إطار هذه الرغبة فى الموت الكثير من صور الحب، أو ما نسمية حبا، بين الرجل والمرأة. ونحن نسمى هذه الصور من الحب توحدا والمحبان يستحيلان واحدا. وما من توحد يواتى ندّين من بنى الإنسان. التوحد يعنى وأد الذات لحساب الآخر، أو وأد الآخر لحساب الذات.

- علاقات الحب / الموت هذه، تنطوى كما اكتشفت من تطورات علاقتى بزوجى أحمد، علي تبادل المواقع، كنت الخالق والمخلوق، الرب والقربان، المالك والمملوك، الوائد والموءود، الشىء واللاشىء.

- بدأت لعبة التوحد وأنا المعبود وانتهت وأنا العابد.

- الرغبة فى امتلاك الآخر تستوى والرغبة فى أن يمتلكنا الآخر، والوضعان وجهان لنفس العملة: محاولة لرفض الحياة المحكومة بالتغير ونسبية الأشياء.

- لم يقتلنى أحمد كما توهمت فترة أنه فعل. لا يملك أحد أن يقتل أحدا: يدا القتيل فى كل الحالات مخضبة بدمه: عروس النيل تقبل راضية، تنزلق إلي المياه مستسلمة، يطويها الموج منتشية بأمل التوحد مع المعبود، بأمل أن تصبح المعبود.

- حاجة الإنسان إلي الإنسان حاجة مشروعة وبناءة، وهى تساوى حاجته لأن يصل ما بينه وبين العالم الأوسع والأرحب، وحاجته أن

يتزود بالدفء والقدرة علي مواصلة الطريق الأشق والأصعب. وهى حاجة لا يملك سوي الإنسان أن يشبعها. وهو يملك أن يشبعها طالما ظل صاحبها وسيدها، لا عبدا لها.

- حاجة المالك والمملوك إلي الآخر تساوى الحاجة الي تغييب الواقع الحى، إلي وقف الحركة، إلي تثبيت المتغير، إلي مزيد من الانغماس فى حالة العدم، وهى حاجة تلغى ماعداها، وتلغى كل من يتجاوز حدود طرفى اللعبة.

- فى بئر ضيقة ينتفى فيها العالم ولا يكون، تدور لعبة الموت الدامية، وينهد العالم ولا يكون إذا أفلت أحد طرفى اللعبة من البئر، أو شاء أن يبدأ اللعبة مع طرف ثالث.

- العلاقات الإنسانية الحميمة تساعدنا علي الخلاص ولا تشكل الخلاص، وهى تساعدنا علي التوصل إلي معني الحياة، ولا تشكل المعني. المعني يكمن فى عمل يصلنا بما هو خارج عن الدائرة الضيقة لوجودنا الفردى الضيق.

$ $ $

أكتب هذا بسرعة لأسجل ما قاله هشام قبل أن تزول عنى حالة الانفصام النفسى التى لازمتنى وأنا أقرأ يومياتى القديمة، واستمرت طيلة زيارة هشام. أعرف بخبرتى أن هذا الانفصام بين المرأة التى تتفرج وتلك التى تشعر لن يلبث أن يزول.

الغريب حقا أن هشام لم يحمل لى الجديد الذى لا أعرف. بلور هشام فى كلمات ما عرفت وتعمدت كبته فى الأيام الأخيرة، والأنا التى تفهم ما يقال تتفرج وكأن الأمر لا يعنيها، والأنا التى تستشعر وطأة ما

يقال تغيب تماما أو تكاد. فتحت فمها لتصرخ بشىء وبقى فمها مفتوحا دون أن تتشكل الكلمات.

قال هشام:

ـ لقد علمتينى دائما درسا مستفادا من حياتك، وحرصت أن تكررى لى ولحنان الدرس فى بداية زواجنا. وهذا الدرس هو أن من الخطأ أن يعتمد الإنسان اعتمادا كليا علي الآخر، وأنا أدرك الآن كم هو حيوى وأساسى فى أى علاقة إنسانية بين ندّين. وقد استقامت العلاقة بينى وبين حنان بفضلك، وبمدي ما وعينا الدرس الذى هو محصلة تجربتك.

وكان هذا المدخل لكى يقول هشام:

ـ وأنت الآن تعتمدين اعتمادا كليا علي حنان.

وأن يضيف مستدركا وممعنا فى التهذيب:

ـ وعلىّ.

القلم يرتجف فى يدى. ليس هذا كل ما قاله هشام ولا أهم ما قال. الأنا التى تتفرج بدأت تتكمش. والأنا التى تشعر تتمدد بشكل يؤذن بالانفجار.

قال هشام:

ـ عندما كنا بحاجة إلي مساعدتك لتستقيم الأمور بيننا، كنت تفعلين كذا وكذا ...

$ $ $

يتعين علىّ الآن أن أقر بحقيقتين، حقيقة أنى أعتمد علي حنان اعتمادا مرضيّا وحقيقة أن حنان تضيق بهذا الاعتماد.

$ $ $

داهمنى شعور قذف بى من مقعدى واقفة، والبرودة تجمد أطرافى. أشعر بأن وجودى زائد عن حاجة البشر. أجّرر ساقى خلفى وأنا أتجول من غرفة إلي غرفة أبحث عن شىء ما، أتخبط فى قطع الأثاث ولا أجد ما أبحث عنه. أدرك أن شيئا ما كان يجب أن يكتمل ولم يكتمل ، وأنا مازلت أجرّر وجودى الزائد عن حاجة البشر من غرفة إلي غرفة.

ألجأ إلي سريرى ورجفة البرد ترجنى. أشد الغطاء علي جسدى إلي قمة رأسى، التف به. تصطك أسنانى من البرودة. ينعدم وزنى وصوت فى مؤخرة رأسى يقول: لا تخافى لقد اجتزت من قبل هذه اللحظات.

يواتينى رنين التليفون من الصالة ملحا ينادينى وأنا أطفو فوق سريرى عارية والغطاء حولى. يخطر ببالى أن من الضرورى أن أجيب وترعبنى ضرورة عبور الردهة المؤدية إلي الصالة. من الضرورى أن أستمر فى أداء الدور، أقول لنفسى: أى دور؟ انتهي الدور، وشكرا قالوا: ارفعى قبضتك عنا لنتنفس. ورنين التليفون مازال ملحا ينادينى: أى دور؟ دور من يمارس الحياة: أقول، وأنا أعتدل جالسة فى سريرى.

فى الردهة أجد طيورى السوداء فى انتظارى. أصارع لأصرخ الصرخة التى لم أصرخها فى وجه هشام ولا أجد الكلمات. أصارع لأتقدم فى الردهة، والطيور السوداء تتعلق بساقى، ببطنى ، بصدرى، تعوق حركتى، وحنان تصرخ غلط، وهشام يصرخ غلط، أكبر غلط،

والكلمات تتشكل فى عقلى ولا أصرخ، تلتصق الطيور كالخفافيش بوجهى. أهشها بشراسة لتعود، ونداء التليفون يلح، وتنفك عقدة لسانى وأصرخ:

ـ أى التصاق جنينى؟

يتعلم الإنسان ولا يتعلم، إلي الرحم يدلف منتشيا، بوشاح الحب متشحا، بوشاح الأمومة متشحا والابنة الأم والأم الابنة. وما من حبل سرى.

تخرج الصرخة من فمى فى نواح حيوان جريح:

ـ أى التصاق جنينى؟

والطيور تنزاح الآن عن جسدى فوجا بعد فوج، أزيلها عن طريقى وأتحرك، تتقافز من حولى وأتحرك، أتعايش مع طيورى وأتقدم. أستجيب لنداء التليفون. أرفع سماعة التليفون ولا نداء. ملّ المنادى.

$ $ $

تدور يداى بقرص التليفون خمس مرات فى نشوة ملتاثة. كيف غابت عنى حاجة سمير إلىّ؟ نعم: سأقول لعرض سمير بالزواج بلا أدني تردد : نعم. أملك أن أعيد إليه الحماس الذى فقده والإيمان بالحياة. أملك أن أحيل عجزه قدرة وتعثره استقامة، وأشلاءه الممزقة كلا موحدا. كيف تأتي أن أستشعر وجودى زائدا عن حاجة البشر وحاجة سمير من سنين تستجدينى، تسيمنى العذاب، تطوقنى، تحاصرنى ... تتربص لى متحفزة؟

تدور يداى ملتاثة منتشية علي قرص التليفون خمس مرات وتتوقف

الكاتبات

أميلى نصر الله
لبنان : 1931
الأعمال الإبداعية :
ـ طيور أيلول. رواية، 1962
ـ شجرة الدفلى. رواية، 1968
ـ جزيرة الوهم. مجموعة قصصية، 1973
ـ الباهرة. رواية، 1975
ـ الينبوع. مجموعة قصصية، 1978
ـ تلك الذكريات. رواية، 1980
ـ الإقلاع عكس الزمان. رواية، 1981
ـ المرأة فى 17 قصة. مجموعة قصصية، 1983
ـ الطاحونة الضائعة. مجموعة قصصية، 1984
الدراسة:
بكالوريوس فى التربية، الجامعة الأميركية فى بيروت، 1958.
العمل:
متفرغة لكتابة الرواية.

رضوي عاشور
جمهورية مصر العربية : 1946
الأعمال الإبداعية والنقدية :

- الطريق إلي الخيمة الأخري. دراسة فى أعمال غسان كنفاني، 1977
- التابع ينهض. الرواية فى غرب أفريقيا، 1980
- الرحلة. أيام طالبة مصرية فى أمريكا، 1983
- حجر دافئ. رواية، 1985
- خديجة وسوسن. رواية، 1989
- رأيت النخل. مجموعة قصصية، 1989
- سراج. رواية، 1992

الدراسة:

دكتوراه فى الأدب الأفروأمريكى من جامعة ماساتشوستس، الولايات المتحدة، 1975

العمل:

أستاذ ورئيس قسم اللغة الانجليزية، كلية الآداب - جامعة عين شمس.

النشاط:

عضو لجنة الدفاع عن الثقافة القومية.

ناديا خوست

الجمهورية العربية السورية

الأعمال الإبداعية والنقدية :

- أحب الشام. مجموعة قصصية، 1962
- فى القلب شئ آخر. مجموعة قصصية، 1979
- كتاب ومواقف. دراسات نقدية، 1983
- فى سجن عكا. مجموعة قصصية، 1984
- الهجرة من الجنة، 1989
- دمشق، 1993

الدراسة:
دكتوراة فى الآدب من جامعة موسكو، 1970.
العمل:
الكتابة فى الصحافة والدوريات الأدبية.
النشاط:
عضوة فى مجلس اتحاد الكتاب، عضوة فى هيئة تحرير الآداب الأجنبية، عضوة مؤسسة فى هيئة دمشق القديمة.

إعتدال عثمان
جمهورية مصر العربية : 1942
الأعمال الإبداعية والنقدية :
ـ يونس البحر. مجموعة قصصية، 1987
ـ إضاءة النص. دراسات فى الشعر العربى الحديث، 1988
ـ وشم الشمس. مجموعة قصصية، 1992
الدراسة:
ماجستير أدب عربى ـ الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 1979.
العمل:
مدير للنشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حنان الشيخ
لبنان : 1945
الأعمال الإبداعية :
ـ انتحار رجل ميت. رواية، 1970

- فرس الشيطان. رواية، 1975
- حكاية زهرة. رواية، 1980
- وردة الصحراء. مجموعة قصصية، 1982
- مسك الغزال. رواية، 1986
- بريد بيروت. رواية، 1992
- أنا وحدى. مسرحية من فصل واحد، 1992
- حارس العذاري. مجموعة قصصية، 1993

الدراسة:

سنة ثانية جامعة فى الكلية الأمريكية للبنات (رمسيس حاليا) جمهورية مصر العربية.

العمل:

متفرغة لكتابة الرواية والقصة القصيرة.

سلوي بكر

جمهورية مصر العربية : 1949

الأعمال الإبداعية والنقدية :

- زينات فى جنازة الرئيس. مجموعة قصصية، 1986
- مقام عطية. رواية وثلاث قصص، 1987
- عن الروح التى سرقت تدريجيا، 1989
- العربة الذهبية لا تصعد إلي السماء. رواية، 1991
- عجين الفلاحة. مجموعة قصصية، 1992
- وصف البلبل. رواية، 1993
- كتاب المرأة (هاجر) بالاشتراك مع د. هدي الصدّي.

الدراسة:
بكالوريوس فى المسرح ـ المعهد العالى للفنون المسرحية، 1976.
العمل:
متفرغة لكتابة الرواية والقصص القصيرة.

لطيفة باقا
المغرب : 1964
الأعمال الإبداعية والنقدية :
ـ أنوال. مجموعة قصصية، 1991
الدراسة:
إجازة فى علم الإجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، 1986.
حائزة علي جائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب فى القصة القصيرة سنة 1992.

سلمي مطر سيف
الإمارات العربية المتحدة : 1968
الأعمال الإبداعية والنقدية :
ـ عشبة. مجموعة قصصية، 1988
ـ هاجر. مجموعة قصصية، 1991
الدراسة:
بكالوريوس فى التربية.

العمل:
إدارة المناهج والكتب فى دبى.

ليانة بدر
فلسطين : 1952
الأعمال الإبداعية والنقدية :
- بوصلة من أجل عباد الشمس، 1979
- قصص الحب والملاحقة. مجموعة قصصية، 1983
- شرفة علي الفكهانى، مجموعة قصصية، 1983
- أنا أريد النهار. مجموعة قصصية، 1985
- عين المرآة. رواية، 1991
- جحيم ذهبى. مجموعة قصصية، 1991
- رحلة فى الألوان، 1981.
- فى المدرسة، قصص للأطفال، 1983.
- نجوم أريحا، رواية، 1993
الدراسة:
ليسانس فلسفة وعلم نفس، جامعة بيروت العربية، 1975.
العمل:
مديرة قسم ثقافة الأطفال، دائرة الثقافة الفلسطينية.
النشاط:
عضوة فى اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطيني.
عضوة لجنة التنسيق لملتقي الإبداع النسائى فاس.

سهام بيومى
جمهورية مصر العربية : 1950
الأعمال الإبداعية والنقدية :
ـ الخيل والليل. مجموعة قصصية، 1986
ـ خرائط للموج. رواية، تصدر قريبا.
ـ البحر يعرف، مجموعة قصصية، تصدر قريبا.
ـ الزاوية الحمراء، دراسة عن أحياء القاهرة
ـ شارع قصر النيل، سيناريو لفيلم تسجيلى
ـ مدينة بورسعيد من المقاومة إلى الإنفتاح، دراسة.
الدراسة:
بكالوريوس خدمة إجتماعية، 1974.
العمل:
صحفية.
النشاط:
عضو لجنة الدفاع عن الثقافة القومية.
عضو جمعية الكاتبات المصريات.

هادية سعيد
لبنان : 1947
الأعمال الإبداعية والنقدية :
ـ حكاية الساعات الجميلة. سيناريو شريط تسجيلى، 1976
ـ أرجوحة الميناء. مجموعة قصصية، 1981
ـ ياليل، مجموعة قصصية، 1987

- رحيل. مجموعة قصصية، 1989
- سنوات الورد. رواية تصدر، 1993

الدراسة:

بكالوريوس فى الأداب، جامعة بيروت العربية، 1969.

العمل:

عملت فى العديد من الصحف العربية، فى لبنان والعراق والمغرب.

عروسية النالوتى

الجمهورية التونسية: 1950

الأعمال الإبداعية والنقدية :

- البعد الخامس. مجموعة قصصية، 1975
- مقامات. مجموعة قصصية، 1980
- مراتيج، رواية، 1985
- تمثلات الجسد من خلال الرواية التونسية الحديثة. دراسة نقدية، 1993
- جحا. مجموعة كتب للأطفال، 1976
- بسيتي. مجموعة كتب للأطفال، 1980
- سيناريو فيلم قصير فى بلاد الطريون، 1984.

الدراسة:

إجازة فى الأداب العربية – الجامعة التونسية، 1974.

العمل:

أستاذة آداب عربية.

النشاط:
عضو الهيئة المديرة لاتحاد الكتاب التونسى.
عضو الهيئة المديرة لنادى القصة بتونس.

لطيفة الزيات

جمهورية مصر العربية : 1923
الأعمال الإبداعية والنقدية :
- الباب المفتوح. رواية، 1960
- الشيخوخة وقصص أخري، 1986
- من صور المرأة فى القصص والروايات العربية، دراسة نقدية، 1986
- نجيب محفوظ: الصورة والمثال، دراسة نقدية، 1986
- الرجل الذى عرف تهمته، رواية قصيرة، 1991
- حملة تفتيش فى أوراق شخصية، 1992
- بيع وشراء، مسرحية فى ثلاث فصول، 1993.

الدراسة:
الدكتوراه فى الآداب، جامعة القاهرة.
العمل:
أستاذ الأدب الإنجليزى، كلية البنات، جامعة عين شمس.
النشاط:
رئيس الدفاع عن الثقافة القومية.

كل هذا الصوت الجميل

© نور - دار المرأة العربية للنشر
9 ش مديرية التحرير - جاردن سيتي،
القاهرة، جمهورية مصر العربية.
فاكس : 3553825
الطبعة الأولي 1994

تصميم الغلاف: محيى الدين اللبّاد